مُنْيَةُ الفَقِيرِ المتَجَرِّدِ وسِيْرَةُ المرِيدِ المتَفَرِّدِ

مختصر شرح ابن عجيبة على متن الآجُرُّومِيّة في التصوف

تحقيق
الدكتور بدر الدين منصور

تأليف
الشيخ عبد القادر الكُوهِن

دار الحياة
حلب . سورية

منشورات
دار الحياة
سورية - حلب - شارع أقيول
هاتف: ٢٦٣٢٤٤١ - فاكس: ٢٦٣٩٢٧٨
ص. ب: ١٠٥٨٠

تطلب جميع منشوراتنا من:
مكتبة أسامة بن زيد
سورية - حلب - شارع أقيول
هاتف: ٢٦٣٩١٤٠

مُنْيَةُ الفَقِيرِ المتَجَرِّدِ وسِيْرَةُ المرِيدِ المتَفَرِّدِ

مختصر شرح

ابن عجيبة على متن الآجُرُّومِيَّة

في التصوف

تأليف

الشيخ عبد القادر الكُوهن

تحقيق

الدكتور بدر الدين منصور

مُقَدّمةُ المُحقِّق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً ، و أنت تجعل الحَزْنَ إذا شئت سهلاً سهلاً .

وبعد ....

فإن كتاب متن الآجُرُّومِيّة في النحو من خير متون النحو ، ولذلك لقي العناية الفائقة من شرحٍ ونظمٍ وحواشٍ ، وانتفع به كثير من أهل العلم ، وقد ألهم الله عز وجل بعض العارفين بشرحه شرحاً صوفياً سلوكياً إشارياً ، كالشيخ أحمد بن عجيبة رحمه الله ، حيث شرحه شرحاً مفيداً ، ثم جاء الشيخ عبد القادر الكوهِن من أهل فاس بالمغرب ، فجرَّد الشرح فجاء جامعاً بين روح ابن عجيبة ولسان وحال الشيخ عبد القادر فكان مكملاً متمماً .

وهذا الكتاب لم يلق عناية بالطبع والإخراج ، فلقد وجدت له طبعة غير مقروءة طبعت بليبيا ،. فأحببت أن أحققه وأبين ما أُشْكِل فيه ، واللهَ أسأل أن ينفعني به وإخواني ، إنه جواد كريم ، والحمد لله رب العالمين .



ترجمة الشيخ عبد القادر الكوهن

صاحب كتاب منية الفقير المتجرد وسيرة المريد المتفرد

هو الشيخ عبد القادر بن أحمد بن أبي جيدة علي بن عبد القادر ، أبو محمد الكوهن ، فاضل مغربي من أهل فاس ، توفي بالمدينة المنورة سنة /١٢٥٤/ هـ /١٨٣٨/م

من مؤلفاته : إفادة ذوي الاستعداد إلى معالم الرواية والإسناد ، وهو ثَبتُه (عرف فيه بعض شيوخ زمانه) وكتاب نوافح الورد ، والمسلك الداري شرح آخر ترجمة البخاري ، والرحلة إلى الحجاز ، ومنية الفقير المتجرد وسيرة المريد المتفرد وهو هذا الكتاب .



ترجمة ابن عجيبة

أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس ، صوفي مفسر ، مشارك في أنواع من العلوم ، ولد سنة (١١٦٠) هـ وتوفي في ٧ شوال (١٢٢٤) هـ . من تصانيفه : إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عطاء الله ، والبحر المديد في تفسير القرآن المجيد ، وأزهار البستان في طبقات الأعيان ، والفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية .



ترجمة صاحب متن الآجُرُّومِيّة في النحو

هو محمد بن محمد بن داود الصُنهاجي ، أبو عبد الله ، نحوي اشتهر برسالة الآجُرُّومِيّة ، وقد شرحها كثيرون ، وله فرائد المعاني في شرح حرز الأماني ، ويعرف بشرح الشاطبية في القراءات العشر .

ولد في فاس سنة /٦٧٢/ هـ - /١٢٧٣/ م وتوفي بفاس سنة /٧٢٣/ هـ - /١٣٢٣/ م



مقدمة المؤلف

هذا تجريدي شرح الشيخ الكامل الأجَلّ الواصل المربي بالحال والمقال ، الراسخ القدم في مقامات السادات الرجال ، الشريف أبي العباس سيدي أحمد ابن عجيبة ، للعالم العلامة والحبر البحر الفهامة عبد القادر بن أحمد الكوهن ، على متن الآجُرُّومِيّة لعبد الله محمد بن داود الصنهاجي المغربي قدس الله سرهم. ونفعنا بهم آمين .



بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، الحمد لله الذي أودع قلوب أهل خصوصيته علوماً وأسراراً ، وأجرى على ألسنتهم حقائق ولطائف ومعارف وأنواراً ، نزه أفكارهم في بساتين عجائب قدرته ، وأدهش أرواحهم بما أشهدها من كمال جماله وكبريائه وعظمته ، خاضوا لجج التحقيق فاستخرجوا جواهره ودُرَرَهُ ، وقطعوا مهايع[1] التدقيق فانتقوا شوارده وغُرَرَه ، فلهم في كل ذرة من ذرات الوجود عبرة وفي كل تقلب من تقلبات الدهر فكرة وخبرة .

أحمد الله تعالى حمد موقن أن لا مستند له سواه ، وأشكره جل وعلا شكر معترف أن كل ما به من نعمة إنما هي من الله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد قطب العوالم وإنسان[2] عينها ، وأساس الكائنات ومنبع سرِّها ، مَن منه انشقت أسرار العارفين ، ومن بركته انفلقت أنوار

---

[1] المهع : تلون الوجه من عارض فادح . لسان العرب .

[2] إنسان العين : ناظرها . قاموس .

الواصلين ، صلاةً وسلاماً نستمد بهما من بحره الفياض ، ونستوجب بهما رضاً لا يعقبه بفضل الله إعراض ، وعلى آله المقتبسين من مشكاة أنواره ، وصحابته المغترفين من بحور علومه وأسراره ، ما دعا داع إلى الله ، ولبى مشتاق إلى حضرة الله .

وبعد ...

فيقول أفقر الخلق إلى مولاه ، الراجي عفوه وكرمه ورحماه ، عبد القادر بن أحمد الكوهني حققه الله بحقائق التقوى ، وجعله من المتخلقين بمراقبته في السر والنجوى :

لما وقفت على شرح الشيخ الكامل ، الأجل الواصل ، المربي بالحال والمقال ، الراسخ القدم في مقامات السادات الرجال ، الآتي من فن التصوف بالفهوم الغريبة ، الشريف أبي العباس سيدي أحمد بن عجيبة ، متعه الله بالنظر إلى مولاه ، وجعل الفردوس الأعلى مستقره ومثواه ، على المقدمة الآجُرُّومِيَّة الموضوعة في مبادئ علم العربية .

وجدته رحمه الله قد جمع فيه بين شرح العبارة الراجعة إلى القواعد النحوية التي بها صلاح اللسان ، وشرح الإشارة

الراجعة إلى المسائل التصوفية التي بها صلاح الجنان ، على وجه بديع غريب ، يستحسنه كل من له في التصوف أدنى نصيب ، وذلك لما أودع الله في قلبه من العلوم الربانية ، وأفاض عليه من الفتوحات العرفانية ، وكل إناء يترشح بما فيه ، وكل ما حواه قلب الإنسان لا بد أن يظهر على فيه .

ولما كان الفقير الصوفي لا اهتمام له بلسانه ، وإنما اهتمامه بإصلاح جنانه ، فضالته التي ينشدها كلمة تجمعه على ربه يسمعها ، لئلا يلتفت المريد السالك بحسب القصد الأول إلى ما وراء ذلك ظهر لي بسبب هذا الغرض ، ما هو كالحق المفترض ، من تجريد الشرح المذكور مما يتعلق بالنحو الذي هو في كتب النحاة مدون مسطور ، وأقتصر على الإشارة التصوفية ليسهل تناولها على من ينتمي لطريقة الصوفية ، كي أفوز بدعواتهم الصالحة ، وأضرب معهم بسهمي في تجارتهم الرابحة ، فإن التطفل على الكرام رباح ، والتزيي بزي أهل الفلاح فلاح ، والله يُحَسِّنُ منا النيات ، ويصلحُ منا الطويات ، بجاه خير الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وسميت هذا التقييد :

﴿ مُنْيَةُ الفَقِيرِ المُتَجَرِّدِ وسِيرَةَ المُرِيدِ المُتَفَرِّدِ ﴾

ويتأكد قبل الشروع في المقصود التنبيه على مقصدين مهمين ، هما في نفاستهما والانتفاع بهما كالإثمد للعينين ، الأول : فيما يوجب الاغتباط بهذا العلم ، الثاني : في بيان أن حمل الكلام على معنى لم يقصده المتكلم مهيع مطروق عند أولي البصائر والفهم ، وبالله سبحانه أستعين إنه هو القوي المعين .



المقصد الأول:

فيما يجب الاغتباط بهذا العلم وأنه أحق ما يوجه إليه الفكر والعزم، يكفي في ذلك أمران:

أحدهما: أن التضلع[1] من هذا العلم يقي صاحبه سوء الخاتمة، ويحمله على التوبة والإنابة وسلوك ما يوجب الفوز بالسعادة. فقد نقل الشيخ أبو طالب المكي في كتابه "قوت القلوب" والإمام أبو حامد الغزالي في كتابه "الإحياء" عن بعض العارفين أنه قال: من لم يكن له نصيب من هذا العلم – أي: علم الباطن – أخاف عليه سوء الخاتمة، وأدنى النصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه: من لم يتغلغل في علمنا هذا مات مُصِراً على الكبائر وهو لا يشعر.

الثاني: أنه سبب كل خير وفوز وفتح ونور، وبه يكثر الحسنات ويرتقي بفضل الله إلى أعلى الدرجات، لأن

---

[1] تضلع: امتلأ شبعاً أو رِيّاً. ويقال: تضلع من العلوم ونحوها.

الاشتغال بطريق القوم سبب التصديق بهم ، وهو سبب محبتهم ، ومحبتهم تؤدي إلى الشوق إلى مجالستهم ، ومجالستهم تؤدي إلى النظر في وجوههم ، وفي هذا من الفضل ما لا يخفى .

أما التصديق بطريقتهم فقد تضمن ولاية الله لعبده ، لقول إمام الطريق أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه : التصديق بطريق الولاية ولاية .

وأما محبتهم فقد تضمنت الحشر معهم لقوله ﷺ « من أحب قوماً حشر معهم [1] » وقوله « المرء مع من أحب [2] » .

وأما الشوق إلى مجالستهم فقد تضمن الاتصاف بسيرتهم لقوله ﷺ « المرء على دين خليله [3] » لأن الطباع تسرق الطباع .

---

[1] الطبراني عن أبي قرصافة بلفظ : من أحب قوما حشره الله في زمرتهم » وأشار السيوطي إلى صحته .

[2] متفق عليه من حديث أنس وابن مسعود . والترمذي عن أنس ﷺ . وهو صحيح .

[3] الترمذي (٢٣٧٨) والحاكم (١٧١/٤)

وأما النظر في وجوههم على وجه المحبة فقد تضمن خيرَ أجرِ عبادةِ العابدين لقوله ﷺ « نظرة في وجه أخ في الله على شوق إليه خير من أجر من اعتكف في مسجدي هذا أربعين سنة [1]»

ونقل الإمام النووي في شرح المهذب عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه كان يقول : استفدت من الصوفية في مجالستهم شيئين :

قولهم : الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك .

وقولهم : إن لم تشغل نفسك بالخير شغلتك بالشر .

قال الشيخ الشعراني رضي الله عنه فانظر كيف نقل الإمام الشافعي رضي الله عنه ذلك عن الصوفية دون غيرهم ، تعرف بذلك مزيد خصوصيتهم ، ولو أن غيرهم كان على قدم الجد والاجتهاد كالصوفية لنقل ذلك عن أشياخه في علم الظاهر .

---

[1] كنز العمال (٢٤٧٦٦) بلفظ : نظر الرجل إلى أخيه على شوق خير من اعتكاف سنة . والدر المنثور (٢٠٢/١)

قال : وكان الطيبي[1] صاحب حاشية الكشاف يقول : لا ينبغي للعالم ولو تبحر في العلم حتى صار واحد أهل زمانه أن يقنع بما علمه ، وإنما الواجب عليه الاجتماع بأهل الطريق ليدلوه على الصراط المستقيم ، حتى يكون ممن يحدثهم الحق في سرائرهم من شدة صفاء باطنهم ، وليخلصوه من الأدناس ، وأن يجتنب ما شاب علمه من كدورات الهوى وحظوظ نفسه الأمارة بالسوء ، حتى يستعد لفيضان العلوم اللدنية على قلبه والاقتباس من مشكاة أنوار النبوة .

قال : وقد بلغنا عن الإمام حجة الإسلام الغزالي رضي الله تعالى عنه أنه قال لما تَرَكَ الاشتغالَ بعلم النظر واشتغلَ بمجاهدة نفسه على مصطلح أهل الله : ضيعنا عمرنا كله في البطالة ، فيا خيبة مسعاي في تلك الأيام ، فقيل له : ألست قد صرت بذلك حجة الإسلام ؟ فقال : دعونا من هذه

---

(١) هو الحسين بن محمد بن عبد الله ، شرف الدين الطيبي ، من علماء الحديث والتفسير والبيان ، من أهل توريز من عراق العجم ، كانت له ثروة أنفقها في وجوه الخير ، من كتبه : شرح الكشاف سماه : فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب ، والتبيان في المعاني والبيان . توفي سنة /٧٤٣/ هـ - /١٣٤٢/ م .

الترهات ، أما بلغكم قوله عليه الصلاة والسلام « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر[1] » ؟

وقال : وقد انكشف لي الآن أن جميع تلك الأسفار التي كنت أسافرها في تحصيل العلوم وجمعها وكتابتها وتأليفها إنما كان لحب المحمدة والثناء بها عليَّ بين الناس ، ولأُقَدَّم بذلك على أقراني وأهل عصري ، لا لله ولا لأجل أن أعمل أنا بها . فقيل له : أما كان أحد ينهاك من مشايخك عن شيء من هذه النقائص التي انكشفت لك الآن ؟ فقال : لا بل ربما كان الشيخ يستغيب أقرانه فنقع معه تبعاً له ، ما عدا شيخنا إمام الحرمين رضي الله تعالى عنه ، فكان مجلسه مُطَهراً من ذكر نقائص الناس رحمه الله .

وكان سلطان العلماء الشيخ عز الدين بن عبد السلام[2] رحمه الله يقول : قد قعد القوم من الصوفية على

---

[1] البخاري (١٦٩/٥) والسنن الكبرى للبيهقي .

[2] عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن بن محمد بن المهذب السلمي الدمشقي الشافعي ، المعروف بابن عبد السلام ، عز الدين أبو محمد ، فقيه مشارك في الأصول والعربية والتفسير ، ولد بدمشق سنة

قواعد الشريعة التي لا تنهدم دنيا وأخرى ، وقعد غيرهم على الرسوم .

قال : ومما يدلك على ذلك ما يقع على يد القوم من الكرامات وخوارق العادات ، فإنه فرع عن قربات الحق لهم ورضاه عنهم ، فلو كان العلم من غير عمل يرضي الحق تعالى كل الرضا لأجرى الكرامات على أيدي أصحابهم ولو لم يعملوا بعلمهم ، هيهات ، هيهات .

وقال الشيخ الصقلي رحمه الله في كتابه المسمى بأنوار القلوب في العلم الموهوب : كل من صدق بهذا العلم فهو من الخاصة ، وكل من فهمه فهو من خاصة الخاصة ، وكل من عبر عنه وتكمل فيه فهو النجم الذي لا يدرك والبحر الذي لا يترك .

وقال آخر : إذا رأيت من فتح له في التصديق بهذه الطريقة فبشره ، وإذا رأيت من فتح له في الفهم فيه فاغتبطه ، وإذا رأيت من فتح له في النظر فيه فعظِّمْه ، وإذا

---

٥٧ هـ ، من مصنفاته : القواعد الكبرى في أصول الفقه ، والإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ، والنخبة العربية في ألفاظ الآجُرُّومِيَّة .

رأيت منتقداً عليه ففِرَّ منه واهجره ، وما من علم إلا وقد يقع الاستغناء عنه في وقت ما إلا علم التصوف فلا يستغنى عنه في وقت من الأوقات .

وقال في القوت : واتفقوا على أنه علم الصديقين وأن من كان له نصيب منه فهو من المقربين فوق درجة أصحاب اليمين .

قال القطب السيد عبد الله بن أبي بكر العيدورس[1] قدس الله سره : عليك بحسن الظن في الصالحين ، وبحب محبهم ، وهو من أعلى المراتب وأجلُّ المواهب ، ولصاحبه أجمل حلية سابغة وعناية وتخصيص وهداية . وسوء الظن مذموم مطلقاً .

وقال آخر : عليك بحسن الظن ، فإنه دليل على نور البصيرة وإصلاح السريرة ، وكفى به شرفاً لحصول السعادات ونيل الدرجات ، ومن فوائده فائدة تندرج فيها كل فائدة ،

---

(1) أبو بكر بن عبد الله باعلوي الشاذلي ، المعروف بالعيدروس ، صوفي شاعر ، ولد بتريم وأقام بعدن نحو ٢٥ سنة وتوفي بها ، من آثاره : الجزء اللطيف في علم التحكيم الشريف . ولد سنة /٨٥١/ هـ - /١٤٤٧/ م وتوفي سنة /٩١٤/ هـ - /١٥٠٨/ م .

وهو أنه يورث حسن الخاتمة ، وثمرته قد لا تظهر إلا عند خروج الروح ، فيفضي بصاحبه إلى السعادة المتضمنة : ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وعن بعضهم : أنه رأى النبي ﷺ في المنام قال : فقلت له : أنا المتطفل في هذا العلم يا رسول الله ؟ قال : اقرأ كلام القوم ، فإن المتطفل على هذا العلم هو الولي ، وأما العامل به فهو النجم الذي لا يدرك .

وقال الجنيد رضي الله تعالى عنه : التصديق بعلمنا هذا ولاية ، وإذا فاتتك المنة في نفسك فلا يفتك أن تُصَدِّقَ بها غيرك ، فإن لم يصبها وابل فطل .

وقال أبو يزيد : من يؤمن بكلام أهل الطريق فقل له يَدْعُ لك ، فإنه مجاب الدعوة .

ولسيدي علي بن وفاء ﷺ :

قوم أحبوا ربهم وهو الذي لهمُ أحب
قنعوا من الدنيا بما وجدوا فعاشوا في طرب
تركوا متاعبها فلم يمسهموا فيها نصب

ورضوا بالأخرى فمن رضوانه أقصى الأرب
زر حيهم تحيا بهم وتجد رضاك بلا تعب

وفي هذا القدر كفاية لمن تدبره، وبعين الإنصاف لاحظه واعتبره.

المقصد الثاني:

في بيان أن حمل الكلام على معنى لم يقصده المتكلم مهيع مطروق عند أولي البصائر والفهم:

قال العارف بالله سيدي عبد الكريم الجيلي[1] ﷺ في عينيته في بيان أرباب السماع - ومن خطه نقلت -: أجمع أهل الله تعالى على أن الفهم عن الله تعالى على قدر مقام العبد عند الله، ولم يختلفوا في أن الكلمة الواحدة الدالة

---

[1] عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي، ابن سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني، من علماء المتصوفين، ولد سنة /٧٦٧/ هـ - /١٣٦٥/ م وتوفي سنة /٨٣٢/ هـ - /١٤٢٨/ م، وله كتب كثيرة منها: الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل في اصطلاح الصوفية، والكهف والرقيم في شرح بسم الله الرحمن الرحيم.

على معنى مخصوص قد يفهم منها العبد عن الله معاني كثيرة لا تحصى ، وكلهم قائلون أن المستمع لا ينبغي له أن يستمع إلا في الله ، أو في نبيه ﷺ ، أو فيما يتعلق في طريقه إلى الله تعالى . ولا ينبغي له أن يقتصر على ظاهر الألفاظ دون العبور إلى بواطن معانيها ، إلا إذا كانت الألفاظ ظاهرة المعنى في المقصود .

ويجب على الفقير أن لا يستعمل التكلف في التأويل ، بل يتوجه إلى الله تعالى بباطنه ، ويقبل ما يرد من ذلك الجناب بكليته ، ولا يشتغل بألحان المعاني ولا بتحسينات الأغاني ، ولا يلتفت إلى الإعراب ولا إلى تصريف الألفاظ فيفوته بذلك لب المعاني .

وينبغي له أن لا يسمع في شيء مما يتعلق بالدنيا وبالآخرة كالحور والقصور ، فإن ذلك راجع إلى شهوة النفس وزيادة الحظ ، وطريق الرجال بخلاف ذلك فاعلمه .

قال : واعلم أن المستمعين وإن اشتركوا في مجرد سماع الألفاظ فقد تباينوا في سماع معانيها ، فرب كلمة موضوعة لمعنى القرب قد فُهِم منها البعد ، وبالعكس على قدر المقام

والمستمع . ولكن أشرف الفهوم وأعلاها وأعزها وأحلاها وأنورها وأجلاها فهم يقربك إلى الله بأنواع الوسائل ، ولا يحوجك في معرفته إلى الدلائل ، فارفع همتك في فهم المعاني عما دلت عليه ظواهر الألفاظ والأغاني إلى ما يقتضيه حال الوقت ، لتكون ممن قال الله فيهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾(الزمر)

وقال العارف بالله سيدي مصطفى البكري[1] رضي الله تعالى عنه في كتابه العرائس القدسية : واعلم أيها الأخ المحتسي كأس الإفادة بلغك الله الحسنى وأفادك الزيادة أن عدم إعراب بعض السادة لا يعد لحناً عند أهل الإرادة ، لأن القوم لا يدورون إلا مع حقائق المعاني والمباني ، فلا يلحنون إلا في

---

(1) مصطفى بن كمال الدين بن علي البكري الصديقي ، الخلوتي طريقة ، الحنفي مذهبا ، أبو المواهب ، متصوف من العلماء ، كثير التصانيف والرحلات والنظم . ولد في دمشق /١٠٩٩/ هـ ورحل إلى القدس /١١٢٢/ هـ وزار حلب وبغداد ومصر والقسطنطينية والحجاز ومات بمصر /١١٦٢/ هـ ، من كتبه : شرح القصيدة المنفرجة ، وفوائد الفرائد ، والمنهل العذب السائغ لورّادِهِ في ذكر صلوات الطريق وأوراده ، والعرائس القدسية المفصحة عن الدسائس النفسية ...إلخ .

سماع غير المعاني لأسرار المثاني . وكيف يلحن الناطق باللسان الروحاني عن الفيض السبحاني ؟ لأن أحدهم إذا أراد أن ينطق بالكلام الوضيع عن المعنى الرفيع ، المُحتَوي على المقصود الشبيع وكان من حقه عدم الرفع تُقابلُه حقيقته وتقول له : إني لا أستطيع الرفع ، فينطق بالكلام مخفوضاً فيظنه السامع خطأ ، وما خَطَا نَحْوَ الخطإِ لكنه حق الحقيقة له أعطى وبالعكس .

وربما نصب المكسور لما تعطيه حقيقته من الفتح والانتصاب للحق ، ويكسر المنصوب إذا أعطته حقيقته أنه بالكسر أحق ، ويُسَكِّن المتحرك إذا أعطته حقيقته السكون أو الجزم بالأمر الذي به سكون . ويحرك الساكن باعتبار ما تعطيه حقائق الأشخاص والأمكنة والأزمنة والألفاظ والمعاني المنخفضة أو المرفوعة الحسان ، وربما أَلزمَ الأسماء الخمسة الألف والياء والواو لا على لغة من يجيز ذلك ، بل لأمر ورد من حيث الحقائق فأوجب ما هنالك ، وقد سمعت الجد الأعلى للصديق الأكبر ﷺ في مبشرة ذكرتها في الرحلة الرومية ، وقد طرق الباب على خير البرية وسأله أحد

الخدام : من الطارق ؟ فقال : أبا بكر ، فلاح في هذا المقام حكمة استعماله هذه اللغة مع أن الفصيح استعمال الواو أنه فَتْحٌ ، لإشارة حصول أن يفتح له ذلك الباب ، ونَصَبَ لانتصابه في مقام الخلافة بعد الشامخ الإطناب ، وكان الفتح أخف الحركات وألطفها والباب المطروق أسمى الأبواب وأشرفها ، ولتحقق أدبه بانت له ﷺ لوامع أنوارها ، وهمعت له بطوالع سواطع أسرارها ، فما وسعه إلا موافقة مقتضاها والمبادرة لجامعِ شَتيتِها .

ولقد أخبرني الكاشف عن وجوه الغرائب والراشف رشائف العجائب أنه يرى الفاعل فينطق به مفعولاً ، فيقول الجاهل : ليس هذا إدراكاً ومعقولاً ، ومع ذلك فما جهل وما أخطأ ما تعطيه الحقيقة ، لكن المحجوب يُخطِّئُه لعدم شهوده الأوجه الرفيعة ، ولو رام غير ما تعطيه الحقائق لم يمكنه ، لأن دواعي الحق لا تُعْصى ، ومن عصاها قُرِع بالعصا .

وقال تاج الدين أبو الفضل بن عطاء الله ﷺ في لطائف المنن : أخبرني الشيخ الإمام مفتي الأنام تقي الدين محمد بن علي القشيري قال :

كان ببغداد فقيه يقال له : الجوزي ، يقرأ اثنى عشر علماً ، فخرج يوماً قاصداً إلى مدرسته فسمع منشداً ينشد :

إذا العشرون من شعبان ولت
فواصل شرب ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقداح صغار
فقد ضاق الزمان على الصغار

فخرج هائماً على وجهه حتى أتى مكة فلم يزل مجاوراً بها حتى مات .

وقرئ على الشيخ مكين الدين الأسمر ﷺ قول القائل :

لو كان لي مسُعد بالراح يسعدني
لما انتظرت لشرب الراح إفطارا
الراحُ شيء عجيب أنت شاربه
فاشرب ولو حمَّلَتكَ الراحُ أوزارا
يا من يلوم على صهباء صافية
كن في الجنان ودعني أسكن النارا

فقال رجل هناك : لا تجوز قراءة هذه الأبيات ، فقال الشيخ مكين الدين للقارئ : اقرأ هذا رجل محجوب .

ويكفيك في هذا أن ثلاثة سمعوا منادياً يقول : يا سعتر بري ، ففهم كل منهم مخاطبة عن الله تعالى يُخاطَبُ بها في سره ، فسمع الواحد : اسع تر بري ، وسمع الآخر : الساعة ترى بري ، وسمع الآخر : ما أوسع بري . فالمسموع واحد واختلفت أفهام السامعين ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾ (الرعد/٤) وقال سبحانه وتعالى﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾(البقرة)

فأما الذي سمع : اسع تَرَ بِرِّي ، فمريد دُلَّ على النهوض إلى الله بالأعمال ، يستقبل الطريق بالجد فقيل له : اسع إلينا بصدق المعاملة تر برنا بوجود المواصلة .

وأما الثاني فكان سالكاً إلى الله طاولته الأوقات فخاف أن تفوته المواصلة ، فقيل له ترويحاً على قلبه لما أحرقه نار الشغف : الساعة ترى بري .

وأما الآخر فعارف كُشف له عن وسع الكرم فخوطب من حيث أُشهد فسمع : ما أوسع بري .

وقال الشيخ محيى الدين بن العربي ﷺ : دعانا بعض الفقراء إلى دعوة بزقاق القناديل بمصر فلجتمع بها عاجمة من مشايخ الصوفية ، فقدم الطعام ففَجَرَت الأوعية ، وهناك وعاء زجاج جديد قد اتخذ للبول ولم يستعمل بعد ، فغرف فيه رب المنزل الطعام والجماعة يأكلون ، وإذا الوعاء يقول : منذ أكرمني الله بأكْلِ هؤلاء السادات مني لا أرضى لنفسي أن أكون بعد ذلك محلاً للأذى ، ثم انكسر نصفين . قال الشيخ محيى الدين : فقلت للجمع : سمعتم ما قال الوعاء ؟ قالوا : نعم فقلت : ما سمعتم ؟ فأعادوا القول الذي تقدم ، فقلت : قال قولا غير ذلك ، قالوا : وما هو ؟ قلت : كذلك قلوبكم منذ أكرمها الله بالإيمان فلا ترضوا بعد ذلك أن تكون محلاً لنجاسة المعصية وحب الدنيا . جعلنا الله وإياك من أولي الفهم عنه والتقى منه آمين انتهى .

وقال الشيخ سيدي حسين بن عبد الشكور في فيوضاته لايحة القلوب شارحة : علماء الباطن نفعنا الله بهم إذا سمعوا الكلام القديم والذكر الحكيم لا يقفون مع ارتباط آياته ، ولا يتوقفون مع شروطه واستثناآته ، بل يعملون بأيةِ آيةٍ أو كلمة

لاح لهم سناها وانكشف لهم هداها وذلك دأبهم أيضاً في غير القرآن العظيم والبرهان القديم ، فما بالك بكلام الرب الرحيم ؟ فكم سمعوا كلمة من آحاد الناس فكانت في طريقتهم كالمقياس ، لشهودهم تلك الكلمة من الله الذي أنطق كل شيء ، والوجود معه كالفيء في الهواء أو الغيم ، فيستخرجون من الآية الواحدة ولو قَلَّت أحكاماً رائقة ومسائل فائقة ، بحسب كلماتها وكمالاتها ، هذا من حيث ظاهر العبارة لا من حيث باطن الإشارة ، فكم يكون إذ ذاك من وجوه عديلة واعتبارات جميلة ، كالأخذ من أحرف الكلمة علوماً ، ومن حركاتها وسكناتها فهوماً . انتهى .

هذا ما تيسر بعون الله تعالى نقله وجمعه ليعم بتوفيق الله للمتوجهين نفعه ولنرجع إلى المقصود ، فنقول بعون الرب المعبود :

قال في الأصل : ثم يجب على العاقل بعد إصلاح لسانه أن يسعى في إصلاح جَنَانِه ، وذلك بتصفيته من الرذائل وتحليته بأنواع الفضائل ، ليتأهل بذلك قلبه لإشراق أنوار حقائق التوحيد ودقائق أسرار التفريد ، وإصلاح اللسان دون

إصلاح الجَنَان فسق وضلال ، وإصلاح الجنان دون إصلاح اللسان كمال دون كمال ، وإصلاحهما معاً كمال الكمال ، ولله در سيبويه ﷺ حيث يقول :

لسانٌ فصيحٌ مُعْربٌ في كلامِهِ
فيا لَيْتَهُ في موقفِ الحَشْرِ يَسْلَمُ
وما ينفعُ الإعرابُ إن لم يكُنْ تُقَى
وما ضرَّ ذا التقوى لسانٌ مُعجَمُ

وقال الشيخ الصالح الفقيه الميموني[1] ﷺ : وأقبح من القبيح أن يَتَعلم الإنسان أو يُعَلِّم إصلاح اللسان ولا يَتَعلَّم او يُعَلِّم إصلاح القلب الذي هو محل نظر الرب .

والنحو على قسمين : نحو اللسان ونحو القلب ، ومعرفة نحو القلب عند العقلاء آكد وأنفع من معرفة نحو اللسان ، بدليل أنَّا نجد من لا يحسن التلفظ بكلام العرب فيلحن بكلامه برفع المنصوب وبنصب المرفوع ، ويكون في حاله

---

(1) هو إبراهيم بن محمد بن عيسى المصري الميموني الشافعي ، برهان الدين عالم في التفسير والعربية والعلوم العقلية والنقلية ، توفي بالقاهرة في ١٢/ رمضان/١٠٧٩هـ له تصانيف كثيرة منها : حاشية على المواهب اللدنية في السيرة النبوية .

متخلقاً بالكتاب والسنة ، فهذا هو النحو القلبي ، وهو مرضي عند الله ورسوله . ويوجد من يعرف نحو لسان الفم غير متخلق بالكتاب والسنة ، وهذا هو الغالب في زماننا هذا ، وهو مذموم عند الله ورسوله . ولذلك قال ﷺ « فساق أمتي قراؤها[1] » وقال أيضاً :« العلم علمان : علم اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم ، وعلم القلب فذلك العلم النافع[2] » انتهى

وعلم القلب هو اليقين الكبير ومعرفة الله بنعت العيان ، وهذا هو النحو القلبي ، وهو فرض عين على كل مسلم ، أعني : علاج القلب من الأمراض كحب الدنيا الذي هو رأس الخطايا وهم الرزق وخوف الخلق وغير ذلك من الأمراض التي تُعَوِّق عن معرفة الحق وشهوده ، وهذا النحو القلبي يسميه الصوفية المحو - بالميم - لأنه يمحو من القلب كل ما سوى الله ، وهذا العلم هو محط رحالهم ومجال أفكارهم قد استغنوا به عن جميع العلوم رضي الله تعالى عنهم ، قيل

---

(1) لم أجده في الكتب المعتمدة .

(2) قال في الجامع : رواه الخطيب عن الحسن عن جابر وأشار إلى حسنه .

للولي الكبير سيدي أحمد بن موسى[1] : هل قرأت شيئاً من النحو ؟ قال : قرأت بيتين من الألفية هما قوله :

فما لنا إلا اتباع أحمدا

وقوله :

فما أبيح افعل ودع مالم يبح

وقال شيخ شيخنا ومادة طريقتنا مولاي العربي[2] ﷺ : ما عرفت من النحو إلا إعراب قوله تعالى ﴿ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ إن شرط ويغنهم جواب الشرط ، والمقصود بالغنى الغنى الأكبر فيكون خطاباً للمتوجهين على طريق أهل الإشارة .

---

(١) هو أحمد بن موسى المرابي الأندلسي ، أبو العباس ، صوفي من أهل فاس ، له موشحات وأزجال ، وكتاب سماه تحفة الإخوان في سيرة شيخه رضوان الجنوي ، بمجلدين ، توفي /١٠٣٤/ هـ

(٢) هو العربي بن أحمد بن الحسين الدرقاوي الحسني ، فاضل ، ولد بعد سنة /١١٥٠/ هـ بقبيلة بني زروال له من التآليف : جواهر قرطاس ومناقب الشيخ علي الجمل .

قال المؤلف رحمه الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم :

لم يتكلم في الأصل على ما يتعلق بها بطريق الإشارة فنقول : قد ورد في الخبر « أن كل ما في الكتب المنزلة فهو في القرآن ، وكل ما في القرآن فهو في الفاتحة ، وكل ما في الفاتحة فهو في بسم الله » وورد كل « ما في بسم الله فهو في الباء ، وكل ما في الباء فهو في النقطة التي تحت الباء »

وقال بعض العارفين : بسم الله من العارف بمنزلة ﴿كُنْ﴾ من الله .

وقال سيدي حسين بن عبد الشكور المدني رضي الله تعالىعنه في كتابه الفيوضات الحسنى من مشاهدة الحبيب الأسنى : الكلام على البسملة لا تفي به عبارة ولا تقوم به إشارة ، والقول البليغ أنها مفتاح أسرار الغيب ، والشهادة في كل عبادة وعادة ، فيها يفتق رتق المعاني لكل مُعانِي ، وبها قيام المباني في هذه الأواني ، وبها جلاء الأنوار في مجال الأطوار ، وبها ظهور هذا الكون الظاهر وعوالمه ، وبطون

كون الباطن في معالمه ، فلا ذرة إلا وسرها سارٍ فيها ، ولا ذروة إلا وفيضها في بواديها وخوافيها ، وهي براعة الاستهلال الجامعة لما كان أو يكون في الظواهر والبطون ، وهو العنوان الشامل والبرهان الكامل . وافتتح الله بها كتابه المكنون الحاوي لسره المخزون ، وهي حاوية لما فيه من العلوم التي منها كل منطوق ومفهوم ، فهي المنطوية على تفاصيل ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الأنعام) والمشتملة على تفاصيل ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾(الحجر) وجعلها الله سبحانه مفتاح أسرار كل سورة ومصباح أنوار كل صورة ، إذ « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر » وكل ما كان ذا بال فهي مقولة بالحال أو بالمقال لأهل الكمال ، فطوبى لمن عرف شأنها وحفظها وصانها وأعطاها حق إمامتها في محراب استقامتها ومسجد إقامتها ، إذ هي إمام الكلمات القرآنية والكائنات الحسية والمعنوية ، فمن لا إمام له لا مقام له ، قال الله تعالى ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ﴾ فمن ليس له إمام من الأعمال فهو أبتر فلا يحظى

بدعاء المتعال ، والمقصود وجودها حساً ومعنى لا صورة ومبنى ، فإن كل حرف منها يطلبك حقه ليعطيك حقك ، فأَعطِ تُعْطَ ، وكُفَّ عمن تخلف وأبْطَا ، وما هي إلا المفتاح الفاتح لكل باب من علوم الكتاب ، وهي موصلة الطلاب إلى المطلوب المستطاب .

وما قدمها العظيم إلا لما فيها من السر العميم والشأن العظيم ، إذ هو العليم الحكيم ، فاقتد بالحكيم في ذلك وقدمه حالاً ومآلاً في كل أعمالك ، ولا تحرم القلب واللسان نصيبهما من المعاني والبيان ، فلا مبنى إلا وله معنى ، ولكل مجيب نصيب من ذلك السر العجيب على قدر إجابته ، وعلى نجائب إنابته ، فأجب منيباً مجيباً وأنب متسجيباً لتنل عجيباً ، وتوجه إليها بكُلِّك في عقدك وحلك تفز بمطالبك في جميع مذاهبك ، وتعم بمواهبك عوالم قلبك وقوالبك ، فنحمدك اللهم على هذه المنحة الكاملة والموهبة الشاملة ، ونسألك اللهم أن تغمدنا بأسرارها ، وأن تغمرنا بأنوارها ، وتجعلنا قائمين بحقوق كملاها في مشاهد جمالها وجلالها ،

وارشدنا اللهم بفهم علوم حروفها في جميع صفوفها . انتهى .

وحكى أن الشبلي قال : لقيت جارية حبشية وهي مولهة لجِدُّ وتُسرِع في مشيها ، فقلت لها : يا أمة الله رفقاً عليك والطفي بنفسك ، فقالت : هو هو ، فقلت لها : من أين أقبلت ؟ فقالت : من هو ، فقلت لها : وإلى أين تريدين ؟ فقالت : إلى هو ، فقلت لها : ما تريدين ؟ قالت : هو . فقلت لها : ما اسمك ؟ قالت : هو . فقلت لها : كم تذكرين ؟ قالت : هو . وقالت : لا يفتر لساني عن ذكر هو حتى ألقى هو ، ثم قالت :

وحرمة الود مالي عنكمو عوض
وليس لي في سواكم بعدكم غرض
ومن حديثى بكم قالوا بها مرض
فقلت لا زال عني ذلك المرض

قال الشبلي رحمه الله تعالى : فقلت لها : يا أمة الله ما تعنين بقولك : هو ؟ آلله تريدين ؟ قال : فلما سمعت ذكر الله شهقت شهقة فاضت منها نفسها رحمة الله عليها ، قال :

فأردت أن آخذ في تجهيزها ودفنها فنوديت : يا شبلي من هام بحبنا وتاه في طلبنا وتوله بذكرنا ومات باسمنا اتركه لنا فديته علينا ، قال الشبلي : فالتفت أنظر من المنادي والمتكلم فسترت عني وحجبت عنها ، فلم أدر : أرفعت أم دفنت ؟ رحمها الله بمنه وغمرنا بفضله .

قال المصنف رحمه الله تعالى :

الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع :

أي الكلام عند الأكياس هو اللفظ المركب من المقال والحال ، بأن يكون المتكلم به ممن ينهض حاله ويدل على الله مقاله ، المفيد في قلوب المستمعين إما علوماً أو أنواراً أو أسراراً . وفي الحكم : تسبق أنوار الحكماء أقوالهم فحيث صار التنوير وصل التعبير ، فيفيد بمجرد وضعه في القلوب نهوضاً واشتياقاً إلى الحضرة القدسية أو خوفاً زاجراً عن المعصية .

والحاصل أن الكلام إذا خرج من القلب وقع في القلب ، فيفيد إما خوفاً مزعجاً أو شوقاً مقلقاً . وإذا خرج من اللسان كان حده الآذان .

أو نقول : الكلام عند الحكماء : هو اللفظ المركب من القول والعمل ، فإذا كان الكلام خالياً عن العمل كان غير مفيد في القلوب شيئاً ، لكون الحال يُكذِّب المقال ، لأن المتكلم الواعظ إذا عمل أولاً ثم تكلم ووعظ نفع قوله وأنهض حاله ، وإلا كان ضرباً في حديد بارد وفي ذلك يقول الشاعر :

يا أيها الرجل المعلم غيره
هلاَّ لنفسك كان ذا التعليمُ
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى
كيما يصح به وأنت سقيمُ
ونراك تلقح بالرشاد عقولنا
نُصحاً وأنت من الرشاد عديمُ
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ
فهناك يُقبل ما تقول ويقتدى

بالوعظ منك وينفع التعليم

لا تنه عن خلق وتأتي مثله

عار عليك إذا فعلت عظيم

وإن شئت قلت : الكلام الذي يعود بالنفع على صاحبه هو اللفظ المركب من القلب واللسان ، المفيد بوضعه في القلب تنويراً أو ترقية وشهوداً ، وهو الذكر الحقيقي باللسان والقلب ، أو بالقلب والروح ، أو بالروح والسر ، وهو دوام الشهود . أو المفيد أجراً جزيلاً وإحساناً جميلاً ، وهو ذكر اللسان والقلب إذا كان بلا شيخ ، أو أمر بمعروف أو نهياً عن منكر ، وما سوى ذلك : لغوٌ وهذرٌ ولهوٌ وتضييع العمر والاشتغال بما لا يعني ، قال الله تعالى : ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ ﴾(النساء/١١٤) وقال عليه الصلاة والسلام : « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه[1] » فالكلام كله عليك لا

---

[1] رواه الترمذي موصولاً عن أبي هريرة وقال : حديث حسن ، وورواه ابن ماجه مرسلاً .

لك إلا ذكر الله وما والاه وفي الحديث « رحم الله عبداً سكت فسلم أو تكلم فغنم[٢] » ويرحم الله القائل :

لو قدر الكلام عند الناس
من فضة بيضاء في القياس
إذاً لكان الصمت من أعلى الذهب
فافهم هداك الله آداب الطلب

وسمعت شيخنا البوزيدي ﷺ يقول : الفقير الصادق بكلمة واحدة يقضي ألف حاجة ، والفقير الكاذب يتكلم بألف كلمة ولا يقضي حاجة واحدة .

وقلت في بعض الرسائل لبعض الإخوان بعد كلام : طالب الوصول لا تجده إلا ذاكراً أو متفكراً أو تالياً أو مصلياً أو مذكراً أو مستمعاً ، أوقاته معمورة وحركاته وسكناته بالإخلاص ملحوظة ، إن تكلم فبذكر الله أو بما يقربه إلى الله ، وإن صمت فعن الغيبة في الله ، يجول في عظمة الله أو فيما يقربه إلى الله . وإن تحرك فبالله وإلى الله . وإن سكن فمع الله مستأنساً بالله ، مشتغلاً بربه ، غائباً عن نفسه ، ليس له

---

[٢] رواه الديلمي عن أنس بهذا اللفظ .

عن نفسه إخبار ، ولا مع غير الله قرار ، أنسه بالله ، ومجالسته مع الله ، التقوى زاده ، والقناعة رفاده ، ومن بحر العرفان استمداده ، قد استغنى بالله عما سواه ، ورفض وراء ظهره دنياه وهواه ، قد اتخذ الله صاحباً ، وترك الناس جانباً .

وفي الصمت عن غير الله حكم وأسرار لا يذوقها إلا من استعمله الله وتخلق بالله . والله أعلم .

وأقسامه ثلاثة : اسم وفعل وحرف جاء لمعنى :

وأقسام الكلام الذي يصل به العبد إلى حضرة مولاه ثلاثة :

اسم : أي ذكر الاسم المفرد وهو الله ، قال الله تعالى ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ۝٨ ﴾(المزمل) أي انقطع إليه انقطاعاً كلياً ليلاً ونهاراً .

فالاسم المفرد هو سلطان الأسماء ، وهو اسم الله الأعظم ، فلا يزال المريد يذكره بلسانه ويهتز به حتى يمتزج بلحمه ودمه ، وتسري أنواره في كلياته وجزئياته فيتحد الذاكر والمذكور ، فينتقل الذكر إلى القلب ، ثم إلى الروح ، ثم إلى

السر ، فحينئذ يخرس اللسان ويحصل على محل الشهود والعيان ، فيصير ذكر اللسان ذنباً من الذنوب عند مشاهدة علام الغيوب . حسنات الأبرار سيئات المقربين . وفي ذلك يقول الشاعر :

ما إن ذكرتك إلا هَمٌّ يقلقني
قلبي وروحي وسري عند ذكراكا
حتى كأن رقيباً منك يهتفني
إياك ويحك والتذكار إياكا
أما ترى الحق قد لاحت شواهده
وواصل الكل من معناه معناكا

فالذكر منشور الولاية ، ولابد منه في البداية والنهاية ، وهو باب عظيم للدخول على الله ، كما قال الشاعر :

الذكر باب عظيم أنت داخله
فاجعل لمنزلة الأنفاس حراسا

والثاني : الفعل :

والمقصود به مجاهلة النفس في خرق عوائدها . كيف تخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد ، فيخرق

كثرة الكلام بالصمت ، وكثرة النوم بالسهر ، وكثرة الأكل بالجوع ، وأهم العوائد الشاقة على النفس حب الرياسة والجاه والمال فيخرقها بالذل والفقر والنزول بها إلى أرض الخمول . ادفن وجودك في أرض الخمول ، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه . والمقصود بالخمول : كل ما يسقط جاهها ويحط قدرها عند الناس ، فقد قالوا : كلما سقط المريد من عين الخلق عظم في عين الحق وبالعكس . فإذا صار الذل والضَّعَةُ والخمول عنده أحلى من العز فقد ملك نفسه ، ومن ملك نفسه ملك الوجود بأسره ووصل إلى حضرة ربه . قال بعضهم : انتهى سير السائرين إلى الظفر بنفوسهم ، فإن ظفروا بها وصلوا .

والثالث الحرف : والمقصود به الهمة والقريحة وطلب الوصول إلى الله تعالى . فهذا الحرف لا بد منه في البداية ، فإذا وصل إلى الله حذفه ، قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه : إذا كان ولابد من الحرف فحرف بينك وبين الله خير من حرف يكون بينك وبين الخلق .

والمقصود بالحرف الطمع في الوصول إلى مرتبة من المراتب . فالحرف النوراني : هو الطمع في الوصول إلى الله أو إلى رضوانه أو إلى كرامة من كرامات أوليائه أو إلى نعيمه الدائم .

والحرف الظلماني : هو الطمع في الوصول إلى حظ من حظوظ النفس العاجلة كالرياسة والتعظيم والجاه وحب الدنيا وغير ذلك من المقاصد الدنيوية التي يقصدها أهل الهمم الدنية .

والحاصل من الإشارة أنها ترجع إلى الأقسام الثلاثة التي يقطعها المريد وهي : الشريعة والطريقة والحقيقة ، فالشريعة : أقواله عليه الصلاة والسلام . والطريقة : أفعاله . والحقيقة : أحواله . قال ﷺ « الشريعة مقالي ، والطريقة فعالي ، والحقيقة حالي[1] » فالشريعة أن تعبده ، والطريقة أن تقصده ، والحقيقة أن تشهده ، فالشريعة جلُّها أقوال ، والطريقة جلُّها أفعال أي مجاهدة ومكابدة ، والحقيقة جلُّها

---

[1] قال في كشف الخفاء (٤/٢) : لم أر من ذكره فضلا عن بيان حاله .

أخلاق وأذواق . ـ وإلى هذا ترجع الإشارة بقوله (اسم وفعل وحرف) كما تقدم .

فالشريعة للعوام ، والطريقة للخواص ، والحقيقة لخواص الخواص ، فالعوام اقتصروا على التمسك بالشريعة الظاهرة . والخواص تمسكوا بالشريعة في الظاهر وزادوا السلوك في الطريق إلى الحقيقة بتهذيب النفوس وتطهير القلوب ، وهم الصائرون من المريدين . وخواص الخواص تمسكوا بالشريعة في الظاهر وبالطريقة في الباطن فأشرقت عليهم أنوار الحقائق ، فتخلقوا بأخلاقه عليه الصلاة والسلام وورثوا حاله ومقاله ، فهم الورثة الحقيقيون ، ورثوا التركة بتمامها : أقواله وأفعاله وأخلاقه ، وإلى هذا أشار صاحب المباحث حيث قال :

تبعه العالم في الأقوال والعابد الناسك في الأفعال
وفيهما الصوفي في السباق لكنه قد زاد في الأخلاق

وذكر القشيري في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ قال : إن الظالم لنفسه : المتمسك بأقواله عليه الصلاة والسلام ،

والمقتصد : أي المتوسط المتمسك بأقواله وأفعاله ﷺ ، والسابق بالخيرات : المتمسك بأخلاقه عليه الصلاة والسلام أي المتمسك بأخلاقه بعد التمسك بأقواله وأفعاله . والله تعالى أعلم .

فالاسم يعرف بالخفض والتنوين ودخول الألف واللام وحروف الخفض :

فالاسم : الذي تذكره وتهتز به ، وهو الله جل جلاله . **لأن** الاسم عين المسمى ، يعرف بالخفض وهو التحقق بالذل والسفليات . قال الشاعر :

تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهل
إذا رضى المحبوب صح لك الوصل

وقال آخر :

تذلل لمن تهوى لتكسب عزة
فكم عزة قد نالها المرء بالذل
إذا كان من تهوى عزيزاً ولم تكن
ذليلاً له فاقرأ السلام على الوصل

وقال الشيخ سيدي أبو الحسن رضي الله تعالى عنه : اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عَزُّوا ، وحكمت عليهم بالفَقْد حتى وُجِدُوا .

والمقصود هنا بالذل هو ذل النفس في طلب الحق ، يظهر ذلك بين الأقران لتموت النفس سريعاً فتحيا الروح بمعرفة الحق وشهوده ، وذلك كالمشي بالخفض وتعرية الرأس في الموضع الذي يراه الناس ، وكالسؤال في الحوانيت والأسواق فهذا هو الذل الذي يعقبه العز بالله تعالى ، وتحيا به الروح بشهود مولاها ، ويعرف به الله حق معرفته ، وهي معرفة العيان لا معرفة الدليل والبرهان . وبالله التوفيق .

ويعرف الله تعالى أيضاً بالتنوين :

أما تنوين التمكين : بأن يمكنه الله تعالى من محبة شيخ كامل عارف بالله ، ثم يمكنه من خدمته وصحبته ، ثم يمكنه من شهود الحق ومعرفته .

وأما تنوين التنكير : بأن يتنكر من جميع الناس ويفر منهم حتى يأتنس بالله ، فقد قال بعض الصوفية في شأن من

دخل معهم : تنكر لمن تعرف ، ولا تتعرف لمن لا تعرف . وفي الحكم : مهما أوحشك من خلقه فاعلمْ أنه أراد أن يؤنسك به . وقال أيضاً : ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة .

وأما تنوين العوض : بأن يعوض الغنى بالفقر ، والعز بالذل ، والخلطة بالعزلة ، وهكذا يبدل الأشياء القبيحة بأضدادها .

وأما تنوين المقابلة : فيقابل عز الربوبية بذل العبودية . تحقق بوصفك يمدك بوصفه وقوته ، تحقق بفقرك يمدك بغناه ، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته .

ولنا في هذا المعنى شعر :

تحقق بوصف الفقر في كل لحظة
تفز بالغنى والقلب بالسر يعمر
وإن تردن بسط المواهب عاجلاً
ففي فاقة ريح المواهب تنشر
وإن تردن عزاً منيعاً مؤبدا
ففي الذل يخفى العز حيناً ويظهر

وإن تردن رفعاً لقدرك عاليا
ففي وضعك النفس الدنية يحضر
وإن ترد العرفان فافن عن الورى
وعن كل مطلوب سوى الحق تظفر
ترى الحق في أشياء حين تلطفت
ففي كل موجود حبيبي ظاهر

ويقابل أيضاً الأوصاف المذمومة بالأوصاف المحمودة كالبخل بالسخاء ، والتكبر يالتواضع ، والحقد والحسد بسلامة الصدر ، والقلق والحدة بالرزانة والتأني ، وهكذا يقابل المساوي بالمحاسن ، ويقابل الداء بالدواء .

و يعرف أيضاً بدخول الألف واللام :

وهو إشارة إلى دخول الحضرة القدسية ، فإنها معروفة عند العارفين ، ومعرفتها بتعريف الله إياها على ألسنة الرسل وخلفائهم ، وهي محل المشاهدة والمكالمة والمواجهة والمكافحة .. ودخولها يكون بتحقيق ما تقدم من العلامات .

ويعرف الحق تعالى أيضاً الذي هو مسمى الأسماء بحروف الخفض . أي : بأسباب الخفض وهي : كل ما يخفض النفس

وينزل بها إلى أرض التواضع والسفليات كما تقدم . والله أعلم .

فمن : إشارة إلى ابتداء السير . وإلى : إشارة إلى انتهائه ، فالمريد بدايته هي المجاهدة ، ونهايته هي المشاهدة . فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته ، فإشراق البداية هي : القريحة الوقادة والكَدّ والجدّ في مجاهدة النفس وعمارة الأوقات ، وإشراق النهاية هو : دوام شهود الحق والعكوف في حضرة القدس ومحل الأنس .

والناس ثلاثة أقسام : قوم قنعوا بمقام الإيمان ولم ترفع همتهم إلى طلب العيان ، وهؤلاء لا سير لهم فهم عوام المسلمين . وقوم تعلقت همتهم بالوصول واستعملوا شيئاً من عبادة الظاهر لكن لم يظفروا بشيخ التربية ، أو لم يقدروا على صحبته ولم تسمح نفوسهم بالتجريد وخرق العوائد ، وهؤلاء صالحون أبرار وهم أيضاً من عامة أهل اليمين ، سواء كانوا من الزهاد أو العباد أو العلماء الأنجاد ، لأنهم حيث لم يخرقوا عوائد أنفسهم لم يتحقق سيرهم ، لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين كيف تخرق لك العوائد

وأنت لم تخرق من نفسك العوائد . وقوم ارتفعت هممهم إلى الوصول وظفروا بشيخ التربية وقوّاهم الله تعالى على صحبته وخدمته وتجردوا من عوائدهم ، فأشرقت بدايتهم بالمجاهدة والمكابدة وأشرقت نهايتهم بدوام المشاهدة ، فهؤلاء من خاصة الخاصة ، وهم المقربون السابقون ، جعلنا الله من خواصهم آمين .

وعن : تشير إلى المجاوزة عن العلائق والشواغل ، إذ لا يصح السير مع العلائق والشواغل ، وكان شيخنا البوزيدي ﷺ يقول : إن شئتم أقسم لكم أنه لا يدخل عالم الملكوت من في قلبه علقة . وقال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ ﴾ (الأنعام/٩٤) أي جئتم إلى حضرتنا فرادى من علائق القلب وشواغله ، وقال الله تعالى ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ ﴾ (الضحى) أي يتيماً من السِّوَى فآواك إلى حضرته .

وقال الشاعر :

فَازَ مَنْ خَلَّى الشَّوَا　　　غِلَ ولمولاه تَوجَّهْ

وعلى : إشارة إلى الاستعلاء على النفس بالقهر والغلبة ، وعلى السير بالنصر والرعاية ، وعلى الهداية بالتمكين والعناية ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾(البقرة) .

وفي : إشارة إلى دخول الحضرة والتمكن فيها تمكن المظروف في الظرف ، فتصير مأواه ومعشش قلبه ، فيها يسكن وإليها يأوي ، ويشير أيضاً إلى الذهاب في الله ، قال تعالى حكاية عن خليله عليه السلام : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٩٩ ﴾(الصافات) أي إلى الذهاب فيه بعد الذهاب إليه ، وهو الاستغراق في بحر الأحدية ، فالذهاب إليه حال السائرين ، والذهاب فيه حال الواصلين .

ورب : إشارة إلى قلة وجود أهل الخصوصية ، قال الله تعالى ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾(ص/٢٤) وقال الله تعالى ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣ ﴾(سبأ) فهم إكسير الوجود ، ومن ظفر بهم ظفر بالغنى الأكبر والسر الأبهر ، أو إلى كثرتهم لمن سبقت له العناية وحسن الظن بالله وبعباده .

والباء : إشارة إلى استعانتهم بالله في سيرهم وظفرهم بالله في وصلوهم ، فمن كانت بالله بدايته كانت إليه نهايته ، فهم مبرؤن من حولهم وقوتهم في سيرهم ووصولهم ، أو إشارة إلى مصاحبتهم لله في غيبتهم وحضورهم وفي جميع شؤونهم ، قد اتخذوا الله صاحباً وتركوا الناس جانباً ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾(مريم٤٩) فالاعتزال عن الخلق سبب في مواهب الحق . أو إلى مصاحبتهم لمن يدل على الله بمقاله وينهض إليه بحاله ، فالصحبة عند هؤلاء ركن كبير من أركان التصوف ، يدرك بها في ساعة واحدة ما لا يدرك في سنين بالمجاهدة والمكابدة ، وجرب ففي التجريب علم الحقائق .

والكاف : تشير إلى التشبه بالقوم في زيهم وسيرهم وأخلاقهم ، فمن تشبه بقوم فهو منهم بشرط العمل والإخلاص .

واللام : إشارة إلى استحقاق الولاية وملكها بالمحبة ، والتشبه بالقوم مع الإخلاص والتجريد من العلائق حتى تشرق عليه أنوار الحقائق ويملك الوجود بأسره من عرشه إلى

عرشه ، يتصرف فيه بهمته ويدور به في لمحة بفكرته ، ويقال له حينئذ :

لك الدهر طوع والأنام عبيد
فعش كل يوم من زمانك عيد

وحروف القسم : هي إشارة إلى كونهم لو أقسموا على الله لأبرهم في قسمهم ، وهو مقام المحبوبين جعلنا الله من خواصهم بمنّه وكرمه آمين .

والفعل يعرف بقد والسين وسوف وتاء التأنيث الساكنة :

والفعل الذي يتوصل به إلى الله ويحصل به الوصول إلى حضرة القدس يعرف بقد التي تفيد الجزم والتصميم ، وهو العزم على البر والتقوى والجزم والتصميم بدوام السير حتى يصل أو يموت ، فبهذا يحصل للمريد الوصول ، فقد قالوا في شروط الفقير هي : حسن الخدمة ، وحفظ الحرمة ، وتعظيم النعمة ، ونفوذ العزيمة هو تصميم العزم على السير إلى الوصول ، فإذا كَلَّ أو ضعف جدد العزم حتى يصل .

وفي ذلك يقول القائل :

قد كابد الجد حتى مل أكثرهم
وعانق المجد من وافى ومن صبر

فإذا خاف على نفسه الملل والرجوع نَفَّس لها شيئاً ما بترك المجاهدة وسَوَّف لها بالراحة والبشارة بالوصول ، وإليه الإشارة بقوله :

والسين وسوف : ويحتمل أن يكون على حذف المضاف ، أي يعرف بترك السين وسوف ، أي : بترك التسويف فيكون إشارة إلى المبادرة وانتهاز الفرصة قبل فوات الوقت ، وإليه أشار ابن الفارض[1] ﷺ بقوله :

وجُدَّ بسيفِ العزمِ سوفَ فإن يَجُد
تَجِدْ نفساً فالنفس إن جُدْتَ جَدَّتِ

وكذا يقال في قوله :

وتاء التأنيث : أي وترك صحبة التأنيث فإن صحبة النساء من أعظم القواطع للمريد قال ﷺ : « ما تركت بعدي أضر على الرجل من النساء[1] » وقد حذر كثير من

---

[1] ديوان ابن الفارض : التائية الكبرى ، المسماة بنظم السلوك .
[1] متفق عليه ورواه الترمذي وأحمد وغيرهم عن أسامة .

الصوفية الفقير من التزوج قبل الوصول إلا إذا كان في صحبة الشيخ ملتصقاً به وقد أذن له في التزوج فقد لا يضر ، والله تعالى أعلم .

والحرف : ما لا يصلح معه دليل الاسم ولا دليل الفعل :

أي : وذو الحرف الظلماني : وهو الذي يعبد الله على حرف أي : طرف من الدين وطمع ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، لا يصلح للسير بالذكر ولا بالعمل ، وهو الذي دخل في طريق القوم طمعاً في رياسة أو عزٍّ أو جاه أو مال فلا يأتي منه شيء . خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ، والعياذ بالله .

باب الإعراب

الإعراب هو تغيير أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظاً أو تقديراً :

كما تتغير أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليها كذلك تتغير أحوال القلوب لاختلاف الواردات الداخلة عليها ، فتارة يَرِدُ عليها وارد القبض ، وتارة وارد

البسط ، فالقبض والبسط[1] حالتان يتعاقبان على العبد تعاقب الليل والنهار .

قال سيدي القشيري ﷺ : إذا كاشف الله العبد بنعت جماله بسطه ، وإذا كاشفه بنعت جلاله قبضه ، فالقبض يوجب إيحاشه والبسط يوجب إيناسه .

واعلم أن رَدَّ العبد إلى أحوال بشريته يقبضه حتى لا يطيق ذرة ويأخذه مرة من نعوته فيَجِدُ لحمل ما يرد عليه قوةً وطاقةً .

قال الشبلي ﷺ : من عرف الله جل وعلا حمل السموات والأرض على شعرة من شعرات جفن عينيه ، ومن لم يعرف الله جل جلاله لو تعلق به جناح بعوضة ضَجَّ منها . فحصل من هذا على حالتي القبض والبسط حتى لا يطيقه .

---

[1] القبض : حل الخوف في الوقت الحاضر ، فإن القلب مع الأناة الحاضرة سواء يحمل إليه القبض أوالبسط أو غير ذلك من الأحوال . والبسط هو عندنا مَن يسع الأشياء ولا يسعه شيء . والعارف مبسوط في قبضه مقبوض في بسطه .

وهذا سيد الرسل ﷺ حين ورد عليه وارد القبض شد الحجر على بطنه ، وحين ورد عليه وارد البسط أطعم ألفاً جياعاً من صاع .

ولكل من القبض والبسط آداب :

فآداب القبض : السكون تحت مجاري الأقدار وانتظار الفرج من الكريم الغفار .

وآداب البسط : كف اللسان وقبض العنان ، والحياء من الكريم المنان .

والبسط مزلة أقدام الرجال . قال بعضهم : فُتِح عليّ باب من البسط فزللت زَلَّةً فحُجِبت عن مقامي ثلاثين سنة . ولذا قيل : قف بالبساط وإياك والانبساط واعلم أن القبض والبسط فوق الخوف والرجاء ، وفوق القبض والبسط الهيبة والأنس . فالخوف والرجاء للمؤمنين ، والقبض والبسط للسائرين ، والهيبة والأنس للعارفين . ثم المحو في وجود العين للمتمكنين فلا هيبة لهم ولا أنس ولا علم ولا حس .

وأنشدوا :

فلو كنت من أهل الوجود حقيقة
لغبت عن الأكوان والعرش والكرسي
وكنت بلا حال مع الله واقفاً
تمازعن[1] التذكار والجن والأنس

وإذا قلنا الإعراب هو البيان فنقول في الإشارة :

الإعراب عما في البواطن هو تغيير أحوال الظواهر لاختلاف الواردات الداخلة عليها ، فما كَمُن في السرائر ظهر في شهادة الظواهر . تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال . والله تعالى أعلم .

وأقسامه أربعة : رفع ونصب وخفض وجزم :

وأحوال التغيير الذي يعتري الإنسان وينزل به أربعة :

---

[1] لعلها : مَذَعَ : كذب وادعى ، والمذاع : الكذاب المدعي ومن لا وفاء له ولا يحفظ أحدا في الغيب .

رفع : أي رفع القَدْر والعز والجاه عند الله تعالى ، وعامله : العلم بالله والعمل بطاعته وصحبة أهل العز والفناء وهم الأولياء رضي الله تعالى عنهم . وضده :

الخفض : وهو الذل والهوان ، وعامله : الجهل وارتكاب المعاصي واتباع الهوى ، كما قال الشاعر :

لاتتبع النفس فى هواها إن اتباع الهوى هوان

وقال آخر :

إن الهوى لهو الهوان بعينه
فإذا هويت فقد لقيت هوانا

فإذا هويت فقد تعبدك الهوى
فاخضع لحبك كائناً من كانا

والمقصود بالهوى : ما تهواه النفس وتعشقه من الحظوظ الجسمانية المحرمة والمكروهة أو المباحة قبل الوصول .

والنصب : نصب النفس لمجاري الأقدار ، وهو مقام الرضى والتسليم ، وهو حال أهل الطمأنينة من العارفين الواصلين .

والجزم : هو التصميم والعزم على السير والمجاهدة والمكابدة إلى الوصول إلى تمام المشاهدة .

فأهل الرفع والنصب عارفون واصلون ، وأهل الخفض تالفون تائهون ، وأهل الجزم سائرون . وقد يتلون العبد بين الرفع والخفض ، فتارة يغلب نفسه فيرتفع ، وتارة تغلب عليه نفسه فينخفض ، وهؤلاء أهل التلوين قبل التمكين[1] .

وقد يكون التلوين بعد التمكين ، وهو تلوين العارف مع المقامات ، فيتلون في كل مقام بلون ، فتارة يظهر عليه الهيبة والخوف ، وتارة يظهر عليه الرجاء والبسط ، وتارة يظهر عليه الورع والكف ، وتارة يظهر عليه الرغبة والأخذ ، وتارة يظهر عليه الشوق والقلق ، وتارة يظهر عليه السكون والطمأنينة ، وهكذا .

وقد يطلب العبد الرفع فينخفض ، وهو من سبق له الحرمان والعياذ بالله تعالى ، وقد يطلب الخفض فيرتفع وهو من سبقت له العناية فلا تضره الجناية ، ربما قضى عليك بالذنب فكان سبباً للوصول ، والله تعالى أعلم .

---

[1] التلوين : تنقل العبد في أحواله والتمكين : التمكن في التلوين .

فللأسماء من ذلك : الرفع والنصب والخفض ولا جزم فيها ،
وللأفعال من ذلك : الرفع والنصب والجزم ولاخفض فيها :

تقدم أن القسمة ثلاثة : شريعة وطريقة وحقيقة ، فأهل الشريعة قائمون بأقواله عليه الصلاة والسلام ، وأهل الطريقة قائمون بأفعاله ﷺ ، وأهل الحقيقة قائمون بأحواله وأخلاقه ﷺ .

فأهل الأقوال هم المعبر عنهم بالأسماء ، لأنهم فانون في الأسماء ، لأن ذكرهم جلُّه لساني ، وعملهم جُلُّه بدني . فيقال من طريق الإشارة : فلأهل الأسماء من ذلك :

الرفع تارة : إن استقامت أقوالهم وقويت دلائلهم ، فيرتفعون إلى درجة الصالحين .

والنصب : أي التوسط بين الارتفاع والانخفاض ، فيقفون بمجاري الأقدار ، وهو حالُ فُتُورِهم وبرودتهم عن العمل الصالح .

والخفض : تارة أخرى وهو حال عصيانهم ، فيسقطون عن درجة الصلاح وينخفضون إلى أسفل سافلين حيث لم تسبق لهم عناية المقربين .

ولا جزم : لهم جزم أهل العيان ، إذ لا يحصل الجزم الحقيقي إلا لأهل الشهود والعيان ، فليس الخبر كالعيان ، إذ لا يسلم صاحب الدليل من الخواطر الردية ، والشُّبَهِ الشيطانية ، فجلهم يعبد الله تعالى عن ظن قوي . ولذلك عبر الله تعالى بالظن في مقام الجزم فقال تعالى ﴿ يَظُنُّوْنُ أَنَّهُمْ مُلاَقُوْا رَبِّهِمْ ﴾(البقرة/٢٤٩) تسييراً وتخفيفاً على أهل الدليل من أهل الإيمان ، إذ لو عبر بالعلم لخرج عن دائرة الإسلام خلق كثير .

والحاصل أن الإنسان لايخرج من مقام الظنون حتى يصحب العارفين أهل اليقين فقد قال عليه الصلاة والسلام « تعلموا اليقين فإني أتعلمه[1] » وفي رواية « بمجالسة أهل اليقين »

---

[1] إتحاف السادة المتقين (٤٠٩/١) وحلية (٩٥/٦) كذا في موسوعة أطراف الحديث .

ثم أشار إلى أصحاب الطريقة التي توصل إلى عين اليقين بقوله :

وللأفعال : أي وللأفعال التي هي المجاهدة والمكابدة .

من ذلك الرفع : أي إلى أعلى عليين .

والنصب : أي نصب أبدانهم إلى مجاري أقدار ربهم بالرضى والتسليم .

والجزم : في عقائدهم وعلومهم لأنه عن شهود وعيان .

ولا خفض فيها . لأنهم سبقت لهم من الله العناية فلاتضرهم الجناية ، فكلما طلبهم عامل الخفض استدركهم عامل الرفع فيرفعهم ، فلاخفض لهم أبداً ، جعلنا الله من خواصهم آمين .



باب معرفة علامات الإعراب

ذكر هنا علامات انتقال العبد من حال إلى حال حسب الواردات القلبية والخواطر السيئة والرديئة : إما من الرفع إلى الخفض أو العكس ، أو من حالة القبض إلى البسط أو العكس ، وهكذا من تَخالُف الآثار وتنقلات الأطوار ، فلكل واحد من هذه الآثار علامات تظهر على صاحبه كما تقدم .

ولكل واحد من القبض والبسط آداب ، وقد أشرت إلى ذلك في قصيدتي العينية فقلت :

وإنْ جَنَّكَ ليلٌ مِنَ القَبْض حَالِكُ
فَهَيِّئْ له صبراً فضوءُهُ تابِعُ
سكوتٌ وتسليمٌ لِما قد جرى به
قضاءٌ مُحَتَّمٌ منَ الحقِّ واقعُ
وللبسطِ آدابٌ إذا لم تَقُم بها
تَزِلُّ بكَ الأقدامُ والقلبُ تابعُ
خضوعٌ وتعظيمٌ وهيبةُ نعمةٍ
ومَسْكُ لسان القول إنَّهُ رائِعُ

للرفع أربع علامات الضمة والواو والألف والنون :

للرفع إلى مقام المقربين أربع علامات أولها :

الضمة : أي ضم المريد إلى الشيخ وصحبته وخدمته وتعظيمه ومحبته . والله ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح . وثانيها :

الواو : أي واو الهوية والحقيقة ، فلا بد للمريد أن يفنى في الذات حقيقة ، فمن لا فناء له لا بقاء له ، فيفنى أولاً في الاسم ثم في الذات ، فبقدر الفناء يكون البقاء ، وبقدر السكر يكون الصحو .

وثالثها ألف الوحدة : فلا بد أن يكون فرد الفرد ، فيكون له قصد واحد ومحبة واحدة وإرادة واحدة ، ويكون ذلك بقلب مفرد فيه توحيد مجرد . ورابعها :

نون الأنانية : فلا يزال المريد يذكر الاسم حتى يكون عين المسمى فيقول حينئذ :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

فيغيب الذاكر في المذكور . فلقد قال غير واحد في مقام

الفناء : أنا ، وقال آخر في مقام البقاء : هو ، فيقال للأول : صدقت ، ويقال للثاني : أحسنت وتأدبت ، كما قال بعض العارفين .

وهنا إشارة أخرى : فيشير بالضم إلى ضم النفس وكفها عن حظوظها وهواها بلجام المجاهدة والمخالفة ، فيرتفع إلى مقام المشاهدة ، وبالواو إلى الود والمحبة في الله ورسوله والشيخ الذي يوصله إلى حضرته والإخوان وسائر عباد الله ، فالمحبة هي أصل الطريق وبها يقع السير إلى عين التحقيق ، فإذا وصل أحبه الله فكان سمعه وبصره وكليته لقوله : « إذا أحببته كنت هو » فإذا أحبه الله نودي بمحبته في السموات فيحبه أهل السموات ، ثم تنزل محبته إلى الأرض كما في الحديث ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾(مريم) ويشير بالألف إلى الوحدة كما تقدم ، وبالنون إلى نور التوجه ثم المواجهة ، فنور التوجه للسائرين ، ونور المواجهة للواصلين ، والمراد بنور التوجه حلاوة المعاملة وما يجده المريد في سيره من النشوة والسكر ونور المواجهة هو نور الشهود ، يواجه الله

تعالى بأسرار ذاته فيغيبه عن رؤية الوجود سوى ذات المعبود .

وفي ذلك يقول الجنيد رضي الله تعالى عنه :

وجودي أن أغيب عن الوجود بما يبدو على من الشهود

فأما الضمة فتكون علامة للرفع في أربعة مواضع في الاسم المفرد وجمع التكسير وجمع المؤنث السالم والفعل المضارع الذي لم يتصل بآخره شيء :

فأما الضمة بالأولياء والمحبة لهم فتكون علامة للرفع إلى مقام المقربين ، وسبباً في نيل مقام السابقين في ذكر اسم المفرد والفناء فيه .

سمعت شيخ شيخنا مولاي العربي الدرقاوي رضي الله عنه يقول : فنيت في الاسم المفرد أربعين سنة حتى كان بدني كله يتحرك بغير اختيار مني ، إذا شددت على الرجل الواحدة اهتزت الأخرى .

فالفناء في الاسم مُقَدِّمة للفناء في الذات بقدره يعظم ويقل ، ويكون أيضاً علامة للرفع في محبة جميع الأولياء الذين هم أهل التكسير والإكسير ، يتصرفون في الوجود بهممهم ،

يكسرون من شاءوا ويجبرون من شاؤا . يكسرون أعداءهم ومن ناواهم بإرادة مولاهم ، ويجبرون أحبابهم بمشيئة مولاهم ، كما قال القائل في وصفهم :

هممهم تقضى بحكم الوقت

ومنكرهم معترض للمفت

ويرفع المريد أيضاً بضمه إلى الشيخ في جمع المؤنث السالم ، أي جمعه بالمؤنث على طريق التزوج السالم من غوائله وشغله عن ربه ، لأن التزوج للفقير المعنت يزيد في تربية يقينه ويوسع أخلاقه فتتسع معرفته ، فإذا علم أنه لا يسلم فالسلامة تركه .

وكان شيخ شيخنا رضي الله عنه يقول : حَذَّر الصوفية من التزوج للفقير ، وأنا آمر به لأن الفقير إذا تزوج تقوى يقينه واتسعت أخلاقه ويتسع معناه ، أو كلاماً هذا معناه .

ويرتفع أيضاً بالفعل المضارع أي : العمل المشابه لفعل الأصفياء بموافقته للسنة وسلامته من البدعة ، وتحققه فيه بالإخلاص والتبري من الحول والقوة ، قال الله تعالى ﴿ فَمَن

كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾(الكهف)

والعمل الصالح هو الذي يصحبه الإخلاص في أوله ، والإتقان في وسطه ، والغيبة عنه في آخره . وإليه الإشارة بقوله :

الذي لم يتصل بآخره شيء : من العلل ، كالإظهار له والتمدح به ، وفي الحكم العطائية : لا عمل أرجى للقلوب من عمل يغب عنك شهوده ويحتقر لديك وجوده ، وفي نسخة : أرجى للقبول ، وبالله التوفيق .

وأما الواو فتكون علامة للرفع في موضعين : في جمع المذكر السالم ، وفي الأسماء الخمسة وهي : أبوك وأخوك وحموك وفوك وذو مال :

وأما واو المودة والمحبة من الخلق فتكون علامة للرفع عند الخالق في موضعين : في جمع المذكر السالم ، أي : إذا كانت تلك المحبة من الجمع الكثير والجم الغفير من أهل العقل السليم والرأي المستقيم ، ولا عبرة بمحبة السفهاء ولا

بغضهم ، إذ ليسوا من أهل العقل السليم ، وأن يكون ذلك الود سالماً من الأغراض والأهواء ، بل يكون لله وفي الله ومن الله بلا عوض ولا حرف . فهذه المحبة هي التي تدل على رفع قدر صاحبها عند الله ، وتكون أيضاً علامة لرفعه في الأسماء الخمسة إذا وقعت من الأجناس الخمسة : الإنس والملك والجن والحيوانات والجمادات .

فإن الله تعالى إذا أحب عبداً قذف محبته في قلوب جميع خلقه ، فيشتاق إليه كل شيء ويطيعه كل شيء ، ويدل على هذا تسخير الحيوانات والجمادات للأولياء وقد تقدم في الحديث « إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إني أحب فلاناً فأحبه ، فيحبه جبريل عليه السلام ، ثم ينادي جبريل في السموات : إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السموات ثم يلقى له القبول في الأرض فيحبه أهل الأرض كلهم جنهم وإنسهم[1] » وفي الحديث « إن العالم يستغفر له دواب البر وأنعامه ودواب البحر وهوامه[2] » وفي حديث

---

[1] البخاري (١٣٥/٤) والترمذي ((٣٦٦١) والموطأ (٩٥٣)

[2] الترمذي (٢٦٤٦-٢٦٨٢) وابن ماجه (٢٢٣)

آخر « إن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في جوف الماء وإن العلماء ورثة الأنبياء لأن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر »

والمراد بالعلماء العلماء بالله أو بأحكام الله إذا خلصت النية ، والاستغفار يدل على المحبة ، والله تعالى أعلم .

وأما الألف فتكون علامة للرفع في تثنية الأسماء خاصة :

وأما ألف الوحدة أي التحقق بها فتكون علامة لرفع صاحبها و كماله في تثنية الأسماء خاصة ، أي : في حال التمسك بالشريعة والحقيقة فقط ، فمن تحقق ولم يتشرع فقد تزندق إلا أن يكون مجذوباً ، أو نقول : تكون ألف الوحدة علامة للرفع في تثنية الأشياء الدالة عليها الأسماء ، وتثنيتها جعلها ورؤيتها قائمة بين الضدين : بين الحس والمعنى ، بين الحكمة والقدرة ، بين العبودية والربوبية ، بين الملك والملكوت ، بين الأثر والمؤثر ، بين الكون والمكون ، بين الخلق والحق ، فلا يكون العارف كاملاً حتى يبلغ إلى هذا المقام .

فإن وقف مع الضد الأول كان محجوباً مطموس البصيرة ، وفيه قال المجذوب رضي الله عنه : من نظر الكون بالكون عراه العمى في البصيرة ، ومن نظر الكون بالمكون صادف علاج السريرة ، وإن وقف مع الضد الثاني كان سكران غير صاح ، فانياً غير باق مجذوباً غير سالك فلا يكون كاملاً . وبالله تعالى التوفيق .

وأما النون فتكون علامة للرفع في الفعل المضارع إذا اتصل به ضمير تثنية أو ضمير جمع أو ضمير المؤنثة المخاطبة :

وأما نون الأنانية وهو مقام الفناء الذي يقول فيه صاحبه : أنا من أهوى ومن أهوى أنا ، فيكون علامة لرفع صاحبه إذا تصل به ضمير تثنية ، وهو الذي يقر الشريعة في محلها والحقيقة في محلها .

فالشريعة للظواهر والحقيقة للبواطن ، فلا يكمل مقام الفناء إلا بالبقاء الذي يعطى فيه كل ذي حق حقه كما تقدم .

أو نقول : ضمير تثنية هو رؤية الضدين في جميع التجليات كما تقدم ، أو ضمير جمع على الله في جميع الأوقات

وكل الحالات ، فيكون مستغرقاً في الشهود غائباً عن كل موجود مستديم الشرب والورود غارفاً من عين المنة والجود .

أو ضمير المؤنثة المخاطبة : أي ذي البصيرة المنورة المخاطبة بالواردات الإلهية والعلوم اللدنية والأسرار الربانية وبالله التوفيق .

وللنصب خمس علامات : الفتحة والألف والكسرة والياء وحذف النون :

ولنصب العبد نفسه للمقادير في مقام الرضا خمس علامات :

الفتحة : أي فتح قلبه لمعرفة الحق ، فإن من عرف الحق رضي بأحكامه ، ومن جهله سخط أحكامه . قيل لبعض العارفين : ما تشتهي ؟ قال : ما يقضي الله . وقال آخر : أصبحت وما لي سرور إلا في مواقع القدر، وفي الحكم : العاقل إذا أصبح نظر ما يفعل الله به والجاهل إذا أصبح نظر ما يفعل بنفسه .

وعلامة العاقل على النصب للمقادير أيضاً والرضى بما

يبرز من عنصر القدرة ألف الوحلة ، فلا يرى إلا الله ولا يركن لشيء سواه ، لأن من رضي بالله رباً لا يعرف غيره . وعلامته أيضاً :

الكسرة : أي الخضوع والسكون تحت مجاري أقداره والذل والافتقار إليه . وعلامته أيضاً :

اليقين التام والطمأنينة الكبرى ، فالياء يشار بها هنا إلى اليقين . وعلامته أيضاً :

حذف نون الأنانية لخروجه إلى البقاء ، فالفاني يقول : أنا ، والباقي يقول : هو ، كما تقدم . وبالله التوفيق .

وأما الفتحة فتكون علامة للنصب في ثلاثة مواضع : في الاسم المفرد ، وجمع التكسير ، والفعل المضارع الذي لم يتصل بآخره شيء إذا دخل عليه ناصب :

كما قيل : لا يكون الفتح على تحقيق العبد بمقام الرضى إلا بعد تحققه بثلاثة أمور في بدايته : الاستغراق في الاسم المفرد ، وصحبته للذاكرين وتمسكه بالعمل الصالح الذي لم يتصل به شيء من العلل ، وهو التمسك بالشريعة المحمدية . وبالله التوفيق .

وأما الألف فتكون علامة للنصب في الأسماء الخمسة نحو : رأيت أباك وأخاك وما أشبه ذلك :

وأما ألف الوحدة إذا تحقق به المريد وتمكن منه فيكون علامة لنصبه للشيخوخة والتذكير في خمسة أمور ، فإذا تحقق بها كانت علامة على صحة نصبه وظهوره بذلك :

ثلاثة في سيره وهي : الصحبة للشيخ وخرق عوائد نفسه وإذن له من شيخه . واثنان بعد وصوله وهما : التحقق بمقام الفناء والبقاء . وبالله التوفيق .

وأما الكسرة فتكون علامة للنصب في جمع المؤنث السالم :

وأما الكسرة أي : الذلة. والهفوة فتكون علامة على نصب العبد وجهه لجهة التوجه بحيث لم تضره ولم تفتره ، بل تزيد له انكساراً وانحياشاً لربه في جمع المؤنث السالم . أي : إذا كان ذلك ميالاً بطبعه لجهة النساء ثم سلم من غائلتهن ورحل إلى ربه بانكساره ، رب معصية أروثتك ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثتك عزاً واستكباراً . وبالله التوفيق .



وأما الياء فتكون علامة للنصب في التثنية والجمع :

وأما اليقين والطمأنينة فيكون علامة لنصب العبد وتوجهه إلى ربه في التثنية . أي : في ضمه الشريعة إلى الحقيقة ، فإن كان ظاهره متمسكاً بالشريعة وباطنه منوراً بأسرار الحقيقة علمنا كماله وصحة توجهه . وإن أخل بأحداهما علمنا نقصانه وإن ظهر أثر اليقين عليه من سكون الظاهر وطمأنينته ، فإن كثيراً من العباد والزهاد ظهر عليهم أثر اليقين وهم غير كُمَّل ، بل هم أشد حجاباً عن الله .

ويظهر أيضاً نصبه وتوجهه في الجمع الدائم بالقلب الهائم ، فيكون شربه متوالياً وسكره متواصلاً كما قال الشاعر :

من أحسن المذاهب سكر على الدوام
وأكمل الرغائب وصل بلا انصرام

وأما حذف النون فيكون علامة للنصب في الأفعال الخمسة التي رفعها بثبات النون :

وأما حذف نون الأنانية بالخروج إلى التحقق بالهوية في

مقام البقاء ، وقد تقدم أن الفاني يقول : أنا ، والباقي يقول : هو ، فعلامة نصبه في مقام الهوية اشتغاله بالأفعال التي ترفع إلى الله تعالى بثبوت النون لعلة النون التي يخصها وهو الإخلاص والإتقان . والله تعالى أعلم .

وللخفض ثلاث علامات الكسرة والياء والفتحة :

ولخفض العبد وتواضعه ثلاث علامات : انكساره لربه دائماً هيبة منه وإجلالاً له ، ولعباد الله تواضعاً ، ولأوليائه تعظيماً . وتحققه بياء النسبة أي : يكون منسوباً إلى الصوفية بأن يقال فيه : صوفي . أو منسوباً إلى أولياء الله مضافاً إليهم ، وأن يكون مفتوحاً عليه قد تحقق بالفتح الكبير . وفي الحكم : التواضع الحقيقي ما كان ناشئاً عن شهود عظمته وتجلي صفته . وبالله التوفيق .

فأما الكسرة فتكون علامة للخفض في ثلاثة مواضع في الاسم المفرد المنصرف وجمع التكسير المنصرف وجمع المؤنث السالم :

فأما الانكسار فيكون علامة للتواضع الحقيقي في ثلاثة مواضع ، أولها : الاشتغال بذكر الله ، وأعظم الذكر الاسم

المفرد لأنه سلطان الأسماء ، فإن الذكر يهذب ويؤدب قال الله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾(العنكبوت/٤٥) ثانيها : جمعه مع الأولياء أهل الإكسير والتكسير ، ثالثها : تحصيله لسنته عليه الصلاة والسلام وإحرازه لدينه بجمعه بالمؤنث من غوائله وهو التزوج ، فلا يظهر تواضع العبد ولا حسن خلقه إلا مع أهله وأولاده . قال رسول الله ﷺ « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي[١] » وبالله التوفيق .

وأما الياء فتكون علامة للخفض في ثلاثة مواضع في الأسماء الخمسة وفي التثنية والجمع :

وأما ياء النسبة التي تحققه بلحوق الصوفية فتكون علامة على خفضه وتواضعه ، حتى يتحقق بما تحققوابه في ثلاثة مواضع في :

الأسماء الخمسة : أي يظهر تواضعه في الأسماء الخمسة : الإنس والجن والملائكة والحيوانات والجمادات ، فإن العارف يتواضع مع الحجر والمدر ومع الأشياء كلها ، لأن تواضعه

---

[١] رواه الترمذي عن عائشة وابن ماجه عن ابن عباس . وأشار السيوطي إلى صحته .

ناشئ عن شهود الضدين في الأشياء كلها فيتواضع مع الربوبية ويقوم بحق العبودية .

وفي الجمع : أي في جمع الإخوان ، فيتواضع مع صغيرهم وكبيرهم ، ويرحم صغيرهم ويوقر كبيرهم ، وفي الحديث « ارحموا صغيركم ووقروا كبيركم[1] » أو كما قال عليه الصلاة والسلام في الجامع . ولله در القائل :

ارحم بني جميع الخلق كلهم
وانظر إليهم بعين الحلم والشفقه
وقر كبيرهم وارحم صغيرهمو
وراع في كل خلق حق من خلقه

وبالله التوفيق .

وأما الفتحة فتكون علامة للخفض في الاسم الذي لا ينصرف :

قد يكون الفتح على العبد في علم الحقائق سبباً لطرده وعلامة على خفضه عن مقام الأكابر ، وذلك في العبد الذي

---

[1] رواه الترمذي عن ابن عمرو ، وأبو يعلى عن أنس بلفظ : ليس منا لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ومن لم يعرف لعالمنا حقه .

لا ينصرف عن هواه ولا ينفك عن طبعه ومتابعة مناه ، وذلك لوجود علتين وهما : حب الرياسة والجاه أو علة تقوم مقامهما وهي : حب الدنيا الذي هو رأس الخطايا .

واعلم أن علم الحقائق لا يطيقه إلا الأقوياء من الرجال الذين قتلوا أنفسهم بالمجاهدة والمخالفة ، وتفرغوا من جميع الشواغل والعلائق القلبية وصحبوا المشايخ وجالسوهم وخدموهم ورُسمت أحكام الشريعة في ظواهرهم ، فحينئذ إذا دخلوا بلاد الحقائق أشرقت عليهم أنوارها وأسرارها وذاقوا حلاوة معانيها ، ورسخت في قلوبهم أسرار المعارف .

وأما قبل ذلك فإما أن : يتزندقوا أو يرفضوا الشريعة وراء ظهورهم فينسل الإيمان من قلوبهم انسلال الشعرة من العجين ، وإما أن : يتقهقروا إلى مقام العمومية .

وليست القلوب كلها تطيق أنوار الحقيقة ، بل بعضها فقط ، وربما تكون بعض القلوب تفر من الذكر وتتعشق إلى اللهو والغناء ، فهي كالجعل وهو : الذي تقول فيه العامة "أبو فساس" فإن من شأنه : إن قربت منه رائحة طيبة مات من ساعته ولا يعيش إلا بالنتن والخبث . فكذلك بعض

الأرواح الخبيثة تنتعش باللهو وتفر من الذكر ، ينسحب عليها قوله تعالى ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴿٤٥﴾ ﴾(الزمر) وبالله التوفيق .

وللجزم علامتان السكون والحذف :

وللجزم بمعرفة الحق والرسوخ فيها بحيث ينقطع من القلب التوهم والخواطر والشكوك والأوهام علامتان :

السكون : أي سكون القلب وطمأنينته ، فيكون كالجبل الراسخ لا تحل بساحته الهموم ولا تطرقه عوارض الغموم ، ولو انطبقت السماء على الأرض ، فلا تحركه واردات الأحوال ولا تهزه الزلازل والأهوال وفي أمثاله يقول الشاعر :

لا تهتدي نوب الزمان إليهم   ولهم على الخطب الشديد لجام

فيسكن الظاهر من تعب المجاهدة ويرتاح الباطن في ظل المشاهدة إذ لا تجتمع المجاهدة مع المشاهدة ، إنما يكون التعب في حالة السير . وأما من وصل إلى الحبيب فلا تعب له ولا نصب ، قال الله تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ وعلامة الجزم أيضاً بشهود الحق حذف علائق القلب وشواغله فلا

يبقى إلا قلب مفرد فيه توحيد مجرد وقد جعل الهموم هماً واحداً فكفاه الله هم دنياه وضمن له عاقبة أخراه جعلنا الله منهم بمنه وكرمه .

فأما السكون فيكون علامة للجزم في الفعل الصحيح الآخر ، وأما الحذف فيكون علامة للجزم في الفعل المضارع المعتل الآخر وفي الأفعال التي رفعها بثبات النون :

فأما سكون الظاهر من تعب المجاهدة فيكون علامة لجزم الباطن ورسوخه في مقام المشاهدة في الفعل المضارع ، أي : في العمل الصالح المشابه لأفعال المخلصين بموافقة السنة ومجانبة البدعة الصحيح الآخر أي : الصافي من العلل التي تلحقه بعد تمامه كالتبجح به واعتقاد المزية على الناس بسببه أو طلب العوض عليه ، كيف تطلب عوضاً عن عمل لست أنت فاعله ؟

والحاصل : أن سكون الظاهر بعد التعب يدل على جزم الباطن وتحققه بمعرفة الله وهي الحياة الطيبة والعيش الهنيء ، قال السري السقطي : من عرف الله عاش ، ومن مال إلى الدنيا طاش ، والأحمق يغدو ويروح في لاش .

واعلم أن سكون الظاهر من تعب المجاهدة قد يكون مع سكون الباطن براحة المشاهدة ، وقد يكون مع بقاء تعبه بالأهوال والخواطر الدنيوية . وذلك أن المريد إذا التقى بالشيخ وأخذ عنه جاء جند النور يريد أن يخرج جند الظلمة من مدينة القلب ، ويريد جند الظلمة البقاء في وطنه فتشتعل الحرب بينهما ، وهذا سبب اضطراب الظاهر وتوارد الأحوال عليه ، وذكر اللسان كالمدفع يرمي عليه من خارج ، فإذا دخل الذكر معه القلب وخالط معه البلد سكت اللسان وما بقي إلا السيوف تضرب ، ثم يخرج جند الظلمة من القلب ويرتاح القلب من تعب التدبير والاختيار وأحوال الدنيا ، ويسكن الظاهر أيضاً من تعب المجاهدة .

وقد ينزل جند النور على جند الظلمة فلا يقدر على إخراجه من القلب فيرتحل النور من حيث جاء ويسكن الظاهر على جند الظلمة ويبقى الباطن متعوباً كما كان ، فهذا حال من رجع من الفقراء قبل التمكين واشتغل بالأسباب قبل الوصول والعياذ بالله من السلب بعد العطاء . وبالله التوفيق .

وأما حذف الشواغل .والعلائق الظاهرة ظلمانية كانت أو نورانية فيكون علامة لجزم الباطن وتحققه بمقام الأذواق والوجدان وتخلصه لمقام العيان في الفعل المضارع أي : العمل المشابه لأفعال الصالحين ، المعتل الآخر بما تقدم ، فإن حذَفَ علته وصفاه وطهره من تلك العلل كان علامة على جزمه وتحققه بالعرفان على نعت الشهود والعيان . وإن لم يحذف علته ولم يطهره مما يشوبه كان علامة على ثبوت حرمانه وكذبه في دعواه .

يعني إن العبد إذا تجرد وانقطع لله وترك شواغل الظاهر كانت تلك الشواغل ظلمانية ككونها دنياوية أو أخراوية أو نورانية ككونها دينية ، لكنها تشتت القلب وتفرق الهمَّ كتدريس العلم الظاهر وتتبع الفضائل ، فإن ذلك يفرق قلب المريد ويشتته فلا يليق به إلا ذكر واحد حتى يذوق سره ، فلا يكون ذلك علامة على جزم صاحبه وطمأنينته حتى يصلح عمله ويخلصه من العلل التي تلحقه ظاهراً وباطناً ، ويكون علامة على جزمه وتحققه في الأفعال التي رفعها بثبات النون أي : في الأفعال التي ترفع صاحبها بثبوت نورانيتها ووجدان

حلاوتها . فوجدان الحلاوة علجلاً دليل على وجدان القبول آجلاً ، فإذا تحقق المريد بحلاوة نور التوجه ثم ترقى إلى حلاوة نور المواجهة فقد صحت معرفته وكمل يقينه وتحقق جزمه وعقد في أسرار التوحيد . وبالله تعالى التوفيق .

فصل

المعربات قسمان : قسم يعرب بالحركات ، وقسم يعرب بالحروف . فالذي يعرب بالحركات أربعة أنواع : الاسم المفرد وجمع التكسير وجمع المؤنث السالم والفعل المضارع الذي لم يتصل بآخره شيء ، وكلها ترفع بالضمة وتنصب بالفتحة وتخفض بالكسرة وتجزم بالسكون . وخرج عن ذلك ثلاثة أشياء : جمع المؤنث السالم ينصب بالكسرة ، والاسم الذي لا ينصرف يخفض بالفتحة ، والفعل المضارع المعتل الآخر يجزم بحذف آخره .

والذي يعرب بالحروف أربعة أنواع : التثنية وجمع المذكر السالم والأسماء الخمسة والأفعال الخمسة وهي : يفعلان وتفعلان ويفعلون وتفعلون وتفعلين . فأما التثنية فترفع بالألف

وتنصب وتخفض بالياء . وأما جمع المذكر السالم فيرفع بالواو وينصب ويخفض بالياء .

وأما الأسماء الخمسة فترفع بالواو وتنصب بالألف وتخفض بالياء . وأما الأفعال الخمسة فترفع بالنون وتنصب وتجزم بحذفها :

الأسرار المعربات أي : المظهرات من عالم الغيب إلى عالم الشهادة أو من بحر الجبروت إلى عالم الملك والملكوت وهي أسرار الذات الأزلية قسمان :

قسم يعرب : أي يظهر بالحروف .

وقسم يعرب : أي يظهر بالإسكان ويقال للجميع : التجليات ، وذلك أن الذات العلية في حال الكنزية كانت ذاتاً لطيفة خفية قديمة أزلية ، متصفة بأوصاف الكمال ثم تجلت وظهرت بالرسوم والأشكال .

فالرسوم هي : التجليات العظيمة كالعرش والكرسي والسموات والأرضين والجبال وغير ذلك من الأجرام الكبيرة والأشكال هي : التجليات الدقيقة كبعض الملائكة وأصناف الحيوانات ، شبهوا التجليات العظام بالحروف والرسوم

والتجليات الدقيقة بالأشكال . وأسرار الذات العلية بالمعاني .

وشأن المعاني أن تفهم بالحروف والأشكال ، فما ظهرت الكائنات الحسية إلا لتقبض منها المعاني الأزلية ، فما نُصبَت الكائنات لتراها بل لتَرى فيها مولاها ، فمن رأى الكون ولم يشهد الحق فيه أو قبله أو معه أو بعده فقد أعوزه وجود الأنوار وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار ، كما في الحكم : فما ظهر في عالم الشهادة هو عين ما في عالم الغيب . الأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته ، وقد أشار ابن الفارض في خمريته إلى وصف الذات الأزلية في حال الكنزية فقال :

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا
ونور ولا نار وروح ولا جسم
تقدم كل الكائنات حديثها
قديم ولا شكل هناك ولا رسم

أي : صفاء كصفاء الماء ولا ماء ، ولطف كلطف الهواء ولا هواء ، ونور كنور النار ولا نار ، وروح أي حياة كحياة الأجسام ولا جسم ، ويسمى هذا الحال الأزلي بالعمي .

قيل : يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : « كان في عماء ليس فوقه هواء ولا تحته هواء[1] » أي كان في خفاء ولطافة ليس فوقه هواء ولا تحته هواء ، بل عظمته عمت فوق الفوق وتحت التحت وقبل القبل وبعد البعد .

ثم أشار إليها بعد التجلي بالرسوم والأشكال فقال :

وقامت بها الأشياء ثَمَّ لحكمة

بها احتجبت عن كل من لا له فهم

وقد وضَّحنا المسئلة وبيناها في شرحنا فلينظره من أراده ، وقد تقدم إشارات الرفع والنصب والخفض والجزم وما ينوب عنها ففيه كفاية وعلمنا كله إشارة . وبالله التوفيق .



---

[1] رواه الترمذي (٣١٠٩) وابن ماجه (٨٢) وأحمد (١١/٤) والطبراني (٢٠٧/١٩)وغيره ، كذا في أطراف الحديث .

باب الأفعال

الأفعال ثلاثة : ماض ومضارع وأمر :

الأفعال التي سبق بها القدر ثلاثة : أفعال سابقة ، وأفعال لاحقة تابعة للسابقة ، وأفعال حاصلة .

والناس فيها على أربعة أقسام : قسم غلب عليهم خوف السابقة ، وقسم غلب عليهم خوف العاقبة ، وقسم غلب عليهم الاشتغال بعمارة الأوقات وما كلفهم به ، فبقدر الأوقات غائبين عن السوابق واللواحق وهم العباد والزهاد ، وقسم غلب عليهم الاستغراق في شهود الفاعل المختار فانون عن أنفسهم غائبون عن وجودهم في وجود معبودهم ، لا يخطر على بالهم سوابق ولا لواحق ، مستسلمين لمولاهم في حكمه وقضائه ، وهؤلاء هم العارفون بالله .

وإن شئت قلت : الأفعال التي تصدر من العبد ثلاثة : فعل مضى ، وفعل هو مشتغل به في الحال ، وفعل يأتي لا يدري ما يفعل الله فيه ، وفي الحديث « المؤمن بين مخافتين :

بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به ، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه ، فليتزود العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ومن حياته لموته ، فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار »

فآداب الماضي نسيانه والغيبة عنه ، فإن تذكر ما مضى من إساءته جدد الندم والاستغفار ، وإن تذكر ما سلف من إحسانه حمد وشكر .

وآداب الآتي الغيبة عنه ونظر ما يبرز من عنصر القدرة ، تاركاً للتدبير والاختيار ، مستسلماً لما يبرز من عند الواحد القهار ، لأن من لم يُدَبِّر دُبِّرَ له ، وما دبره الحق لك أحسن من تدبيرك لنفسك ، فعسى أن تدبر شيئاً ما وتختاره وهو وبال عليك ، فالله أرحم بك من نفسك وأعلم بمصالحك منك . ولله در القائل :

كم رمتُ أمراً خرتَ لي في انصرافه
فلا زلت لي مني أبر وأرحما

عزمت على أن لا أحس بخاطر

على القلب إلا كنت أنت المقدما

وإن لا تراني عندما قد نهيتني

لكونك في قلبي كبيراً معظما

وآداب الحاصل : اغتنام الوقت قبل الممات ، وانتهاز الفرصة قبل الفوات ، والمسابقة إلى فعل الخيرات ، كما قال الشاعر :

السباق السباق قولاً وفعلاً حذر النفس حسرة المسبوق

وبالله التوفيق .

نحو ضرب ويضرب واضرب ، فالماضي مفتوح الآخر أبداً والأمر مجزوم الآخر أبدا ، والمضارع ما كان في أوله إحدى الزوائد الأربع يجمعها قولك أنيت :

فالماضي : أي الزمن الماضي الذي اشتغل فيه صاحبه بأنواع الطاعات والمجاهدات والسياحات في طلب الحق ، مفتوح آخره بالفتح الكثير الكبير أبداً ، لأن البدايات مُجلاَّت النهايات ، فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته ،

والأمر الذي يوصل صاحبه إلى حضرة القدس ومحل الأنس مجزوم ومعزوم عليه أبداً ، لا يحجبه فتور ولا قصور ولا عي ولا ملل ، بل لم تزل فيه عزيمة لا يقر قرارها ، دائماً تسايرها إلى أن أناخت في حضرة القدس ومحل الأنس محل المشاهدة والمكالمة والمكافحة والمواجهة . فتصير الحضرة معشش قلبه ، فيها يسكن وإليها يأوي .

والمضارع أي المشبه بالقوم وليس فيه ناهضة حب وإنما قصده التزيي بأحوال القوم والتطفل عليهم هو ما كانت فيه إحدى العلل الأربع الزائلة على الروح والعارضة وهي : حب الدنيا والعز وخوف الخلق وهَمُّ الرزق . ويجمعها الرضى عن النفس الذي هو أصل كل معصية وغفلة وشهوة وينشأ عن الرضى عن النفس الدعوى فيدعي الوصول ويقول : أنيت أي : قربت من الحضرة ووصلت إليها ، والحال أن بينه وبينها ما بين السماء والأرض . وسبب ذلك الغلط والجهل المركب ، وسبب الغلط عدم صحبة الرجال إذ لا تعرف المقامات إلا بصحبة أهل المقامات العالية . وبالله تعالى التوفيق .

وهو مرفوع أبدا حتّى يدخل عليه ناصب أو جازم :

والمتشبه بالقوم المتزيي بزيهم مرفوع أبداً ، لأن من أحب قوماً حشر معهم ، ومن تزيا بزي قوم فهو منهم ، فلا يزال عزيزاً مرفوعاً ما دام منخرطاً في سلكهم حتى يدخل عليه ناصب فينصبه لطلب الدنيا ، أو جازم يرده فيقهقره على الرجوع من طلب المولى ، فيترك صحبة المشايخ والفقراء والوصول إليهم ، فيكون ذلك سبب رجوعه إلى مقام العمومية . والعياذ بالله .

فالنواصب عشرة وهي : أن ولن وإذا وكي ولام كي ولام الجحود وحتّى والجواب بالفاء والواو وأو ، والجوازم ثمانية عشر وهي : لم ولما وألم وألما ولام الأمر والدعاء ولا في النهي والدعاء وإن وما ومن ومهما وإذما وأي ومتّى وأيان وأين وأنى وحيثما وكيفما وإذا في الشعر خاصة :

والنواصب التي تنصب العبد وتمنعه من الوصول إلى ربه عشرة : حب الدنيا ، والجاه ، والمال ، وهم الرزق ، وخوف الفقر ، ومراقبة الخلق ، وسوء الظن بأهل النسبة ، وإنكار

وجود أهل الخصوصية ، وإنكار وجود أهل التربية ، والشفقة على النفس حتى لا يقدر على مخالفتها وردها عن هواها .

والجوازم تجزمه وتحرمه من الخصوصية ثمانية عشر : الكبر ، والحسد ، وحب العلو ، والعجب ، والرياء ، وعدم الخضوع للأولياء ، والانتقاد عليهم ، والطعن على الفقراء ، والطمع في الخلق ، والخوف منهم ، والميل إلى أهل الظلم ، والركون إليهم ، والوقوف مع المقامات والكرامات ، وحلاوة الطاعات ، والاستغراق في علم الرسوم ، والتجمع مع ظاهر الشريعة ، والتعرض للعلويات ، والظهور قبل التمكين . وبالله التوفيق .

باب مرفوعات الأسماء

المرفوعات سبعة وهي : الفاعل ، والمفعول الذي لم يسم فاعله ، والمبتدأ ، و خبره ، واسم كان وأخواتها ، وخبر إن وأخواتها ، والتابع للمرفوع وهو أربعة أشياء : النعت والعطف والتوكيد والبدل :

الأسماء المرفوعة هي أسماء الحق تعالى وهي كثيرة قال الله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾(الاعراف/١٨٠) والذي

ورد به التوقيف منها تسعة وتسعون ، والذي ظهر منها في الوجود وقام عالم التكوين سبعة ، وهي التي نشأت عن صفات المعاني التي هي : القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام ، فيقال : هو قادر ومريد وعالم وحي وسميع وبصير ومتكلم ، فظهور الآثار وهي تجليات الحق تدل على وجود الأسماء ، والأسماء تدل على وجود الصفات ، والصفات تدل على وجود الذات في تلك التجليات ، لأن الصفة لا تفارق الموصوف ، فظهور هذا العالم يدل على وجود القادر الذي أظهره بقدرته ، والقادر يدل على قيام القدرة به ، والقدرة تدل على وجود الذات في تلك التجليات ، إذ الصفة لا تفارق الموصوف ، فمهما ظهرت الصفات ظهرت الذات ، ومهما ظهرت الذات ظهرت الصفات . وهذا معنى قول من قال : الذات عين الصفات ، أي : متلازمات في الظهور والتجلي . وفي الحكم : دل بوجود آثاره على وجود أسمائه ، وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه ، وبثبوت أوصافه على وجود ذاته ، فالسالك يكشف له أولاً عن وجود أسمائه ،ثم يترقى إلى شهود صفاته ، فَثَمَّ

يكشف له عن كمال ذاته ، والمجذوب بالعكس . إلى آخره . فالفاعل الحقيقي هو الله ، والنائب عنه خليفته ، وهو الإنسان الكامل قال الله تعالى﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾(البقرة/٣٠) وهو آدم وذريته الكُمَّل ، والمبتدأ قبل كل شيء هو الله تعالى ، والخبر هو الذي تجلى به من الأثر ، لأنه يخبر عن الذات وكمالاتها ، واسم كان هو الله تعالى لأنه فاعل الكون الذي هو مصدر له ، وهو أيضاً خبر إنَّ ، لأنه به تأكدت النسب وعزم عليها ، والتابع للمرفوع هو الولي الكامل ، لأنه تابع لله ولرسوله اللَّذين هما أصل كل رفعة وشرف وعز ، وبالله التوفيق .

باب الفاعل

الفاعل هو الاسم المرفوع المذكور قبله فعله ، وهو على قسمين : ظاهر ومضمر . فالظاهر نحو قولك : قام زيد ، ويقوم زيد ، وقام الزيدان ، ويقوم الزيدان ، ويقوم الزيدون ، وقام أخوكِ ، ويقوم أخوك ، وما أشبه ذلك . والمضمر نحو قولك : ضربتُ وضربنا وضربتَ وضربتِ وضربتما وضربتم وضربتنَّ وضربَ وضربَت وضربا وضربوا وضربن :

الفاعل الحقيقي هو الاسم المرفوع القدر العظيم الشان ، وهو الحق جل جلاله المذكور قبله فعله عند الذاكرين ، والمذكور قبله فعله عند الطالبين السائرين، والمذكور بعده فعله عند العارفين الواصلين ، والمذكور قبله فعله عند أهل الدليل والبرهان ، يذكورن فعله ويستدلون به عليه ، وأما الواصلون من العارفين فيذكرونه ويرونه قبل رؤية فعله ، فهم يستدلون بالله على غيره ، فلا يرون إلا هو ، كما قال الشاعر :

مذ عرفت الإله لم أر غيرا
وكذا الغير عندنا ممنوع
مذ تجمعت ما خشيت افتراقا
فأنا اليوم واصل مجموع

فرؤية الفعل قبل الفاعل مَقامُ العموم من أهل الدليل والبرهان . ورؤية الفاعل قبل الفعل أو معه مقام الخصوص من أهل الشهود والعيان .

فأهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان ، وفي الحكم : من رأى الكون ولم يشهد الحق فيه أو عنده أو

قبله أو بعده فقد أعوزه وجود الأنوار وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار . وفيها أيضاً : شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه المستدل به عرف الحق لأهله وأثبت الأمر من وجود أصله والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه وإلا فمتى غاب حتى يحتاج إلى دليل يدل عليه ؟ ومتى بَعُدَ حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه ؟ وقال الشاعر :

عجيب لمن يبغي عليك شهادة
وأنت الذي أشهدته كل مشهد

ثم قال : وهو على قسمين : ظاهر عند العارفين لا يخفى على أحد عندهم إلا على أعمى ، كما قال الشاعر :

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد
إلا على أكمه لا يبصر القمرا

ومضمر أي مستتر باطن عند الغافلين ، كما قال في الشطر الثاني :

لكن بطنت بما أظهرت محتجبا
وكيف يعرف من بالعزة استترا

وفي مناجاة الحكم : إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك ؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك ؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟ وفي عبارته نوع الغرق فلو قال : إلهي كيف يستدل عليك بما هو سر من أسرار ذاتك ونور من أنوار تجلياتك .

وقال أيضاً : كيف تخفى وأنت الظاهر ؟ أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر ؟ فالحق جل جلاله قد تجلى وظهر في الأشياء كلها ثم بطن في ظهوره فما ظهر سواه ، وما تجلى إلا بنور بهائه وسناه لكان أظهر ، وقد قلت في حيرتي :

فما ظاهر في الكون غير بهائها
وما احتجبت إلا بحجب سريرة

إلى آخر القصيدة . قال الله تعالى ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾(الحديد/٣) أي : هو الأول بلا بداية ، والآخر بلا نهاية ، والظاهر فيما تجلى به من أسرار ذاته وأنوار صفاته ، وهو الباطن في عين ظهوره ، ظهر بذاته وبطن بآثار صفاته .

وفي الحكم : أظهر كل شيء لأنه الباطن ، وطوى وجود كل شيء لأنه الظاهر . أي : أظهر حس الكائنات بسبب اسمه الباطن ، وطوى وجود كل شيء بسبب اسمه الظاهر ، إذ لا ظاهر معه . وهذا الأمر لا يفهمه إلا أهل الأذواق الذين يثبتون الضدين في مظهر واحد ، ويعطون كل ذي حق حقه ، وحسب من لم يدرك مقامهم التسليم لما رمزوا إليه .

وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

وبالله تعالى التوفيق .

باب المفعول الذي لم يسم فاعله

وهو الاسم المرفوع الذي لم يذكر معه فاعله ، فإن كان الفعل ماضياً ضم أوله وكسر ما قبل آخره ، وإن كان مضارعاً ضم أوله وفتح ما قبل آخره ، وهو على قسمين : ظاهر ومضمر فالظاهر نحو قولك : ضُرِبَ زيدٌ ويضرب زيد وأكرم عمرو ويكرم عمرو . والمضمر نحو قولك : ضُرِبتُ

وضَرِبنا وضربَتْ وضُربتَ وضُربِتُما وضُرِبتُم وضُربتُنَّ وضُربَ وضُربَتْ وضُربا وضُربوا وضُرِبْن :

المفعول الذي لم يسم فاعله معه بل يصير عين الفاعل حقيقة هو العارف بالله تعالى المتحقق بمقام الفناء والبقاء وهو النائب عن الفاعل الحقيقي في تعريف أحكامه التكليفية والتعريفية الجلالية والجمالية وهو القطب الجامع ويقال فيه الغوث وسمى قطباً تشبيهاً له بقطب الرحا وهو قلبها الذي تدور عليه وكذلك القطب هو قطب الكون عليه يدور من عرشه إلى فرشه فينقبض بقبضه وينبسط ببسطه وهو الذي يصل منه المدد الروحاني إلى دوائر الأولياء من نجيب ونقيب وأوتاد وأبدال إلا الأفراد فإنهم خارجون عن دائرته وله الإمامة والإرث والنيابة والخلافة الباطنة وهو روح الكون الذي عليه مداره كما يشير إلى ذلك كونه بمنزلة إنسان العين من العين ولا يعرف ذلك إلا من كحل عين بصيرته بإثمد التوحيد الخالص وكان له قسط ونصيب من سر البقاء بالله وأما تسميته بالغوث فمن حيث إغاثته للعوالم بهمته ومادته ورتبته الخاصة فهذا يكون واحد في الوجود وله علامات

يتميز بها ، قال القطب الشهير أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه للقطب خمس عشرة علامة فمن وعاها أو شيئاً منها فليبرز بمدد الرحمة والعصمة والخلافة والنيابة ومدد حملة العرش العظيم ويكشف له عن حقيقة الذات وإحاطة الصفات ويكرم بالحكم والفصل بين الوجودين وانفصال الأول عن الأول وما انفصل عنه إلى منتهاه وما ثبت فيه وحكم ما قبل وحكم ما بعد وما لا قبل وما لا بعد وحكم البدء وهو العلم المحيط بكل معلوم وما يعود إليه انتهى . وقد بينا معناه في كتابنا معراج التشوف في حقائق التصوف وتفسير الفاتحة الكبير ولا يشترط في القطب معرفة معاني هذه الشروط وإنما يشترط وجودها فيه بالذوق والكشف بحيث لو بين له معنى كل واحد منها لوجدها فيه ذوقاً وكشفاً لأن القطب قد يكون أمياً في علم الظاهر وفي معرفة معاني الألفاظ لكنه متخلق بكل كمال والله تعالى أعلم . قوله وهو الاسم المرفوع أي المرفوع قدره العظيم الشأن لكونه خليفة الله في كونه يعني النائب عن الفاعل الحقيقي . وقوله الذي لم يذكر معه فاعله أي بل صار هو عين الفاعل الحقيقي لفنائه

في وجوده وانطوائه في شهوده قد انطوى وجوده في وجود فاعله فانتقل من المفعولية إلى الفاعلية بأن صار عين العين كما قال بعض المشارقة في بعض أراجيزه :

قبل اليوم كنت مقيداً بقيود البين
محجوباً بالوهم أحسب مفردي اثنين
فلما تبدى جمالك زال عني الغين
شهدت عيني بعيني وصرت عين العين

وكل من تحقق بمقام الفناء يشير إلى هذا المعنى ، فإن كان الفعل الذي صدر منه ماضياً ضم أوله إلى آخره وصار وقتاً واحداً ، هو الاستغراق في شهود موقت الأوقات . قال بعض العارفين : عليك بورد واحد وهو إسقاط الهوى ومحبة المولى . وكسر ما قبل آخره أي : تواضع في آخره مع عظم قدره ، وكبر شأنه ليعم الانتفاع به كما عم الانتفاع بموروثه صلى الله تعالى عليه وسلم .

وإن كان الفعل الواقع منه مضارعاً أي : مشابهاً لأفعال أهل السلوك بأن تنزل إلى سماء الخمول وأرض الخضوع بالإذن والتمكين والرسوخ في اليقين ضُمَّ أوله لآخره وفُتحَ

له قبل آخر عمره باب في الترقي أبداً سرمداً إلى ما لا نهاية له . قال الله تعالى لسيد العارفين عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾(طه) وهو على قسمين : ظاهر ومضمر . ظاهر لمن سبقت له العناية ووجبت له الولاية ، ومضمر أي : خفي عمن سبق له الخذلان وخص بالخيبة والحرمان . لا يعرفهم إلا من أكرمه الكريم المنان ، فلا يعرف العرائس المجرمون ، ولا يصل إليهم إلا من أراد الله أن يوصله إليه . ولله در القائل حيث قال :

ومن نفى الخصوص في زمانه   فذاك مكر زيد في خذلانه
يخفيهم في خلقه عن خلقه   فذاك فاعلم من عظيم لطفه
لأنهم عرائس الرحمن   يحجبهم عن كل ذي خذلان
ولم يوصل نحوهم بحكمته   إلا الذي أهله لحضرته
إن لم تلاق عارفاً في مدتك   لا عاش عمر وعيشة كعيشتك

والظاهر هو الذي يظهر عليه خوارق وكرامات والخفي من لم يظهر عليه ذلك وبالله تعالى التوفيق .



باب المبتدأ والخبر

المبتدأ هو الاسم المرفوع العاري عن العوامل اللفظية والخبر هو الاسم المرفوع المسند إليه نحو قولك زيد قائم والزيدان قائمان والزيدون قائمون والمبتدأ قسمان ظاهر ومضمر فالظاهر ما تقدم ذكره ، والمضمر اثنا عشر وهي أنا ونحن وأنت وأنت وأنتما وأنتم وأنتن وهو وهي وهما وهم وهن نحو قولك أنا قائم ونحن قائمون وما أشبه ذلك والخبر قسمان مفرد وغير مفرد فالمفرد نحو ما تقدم ذكره وغير المفرد أربعة أشياء الجار والمجرور والظرف والفعل مع فاعله والمبتدأ مع خبره نحو قولك زيد في الدار وزيد عندك وزيد قام أبوه وزيد جاريته ذاهبة ﴾

المبتدأ به والمنتهى إليه هو الحق جل جلاله قال الله تعالى ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾(الحديد/٣) وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾(النجم)

والمبتدأ إشارة إلى الذات العلية الأزلية في حال الكنزية قبل التجلي ، لأن ما وقع به التجلي من الفروع الكونية أسماء لمسميات متعددة لفظاً متحدة معنى ، وهي مسندة إلى ما وقع

منه الابتداء ، وهي الذات العلية الأزلية ، لأنها فرع عنها وتجلي من تجلياتها . قال صاحب العينية :

تجلى حبيبي في فؤادي جماله ففي كل مرأى للحبيب طلائع
فلما تبدى حسنه متنوعا تسمى بأسماء فهن مطالع

وفي الحديث القدسي « كنت كنزاً لم أعرف فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق فتعرفت لهم ، فبي عرفوني[1] » أي : فأظهرت من سر الكنز خلقاً ، وجعلت فيهم عقلاً فتعرفت لهم فعرفوني بي لا بغيري ، إذ لا شيء معي .

فالمبتدأ هو الاسم المرفوع العظيم القدر ، العلي الشأن ، العري عن العوامل أي : المنزه عن التأثير والانفعال ، إذ هو الواجب الوجود ، السابق غير مسبوق ، والعالم غير معمول ، وهو المؤثر في الأشياء كلها بقدرته وإرادته وقهريته وإحاطته ، تعالى جده وتعاظم شأنه أن يلحقه نقص أو يحتاج إلى شيء ،

---

[1] قال في كشف الخفاء : قال ابن تيمية : ليس من كلام النبي ﷺ ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف ، ... وقال القاري : لكن معناه صحيح مستفاد من قوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾أي ليعرفوني كما قال ابن عباس ﷺ .

بل هو الغني عما سواه ، المفتقر إليه كل ما عداه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝١٥ ﴾ (فاطر) .

والخبر هو الاسم المتحد بالذات وإن تعددت أسماؤه ، وهو ما وقع به التجلي من الفروع الكونية ، والتجليات الجلالية والجمالية ، المرفوعة القدر من حيث أنها سر من أسرار الذات ونور من نورها ، وإن وقع في الظاهر نقص في بعض أنواعها فمن جهة الباطن عين الكمال ، وفي ذلك يقول الجيلي رضي الله عنه :

وكل قبيح إن نسبت لفعله أتتك معاني الحسن فيه تسارع
يكمل نقصان القبيح جماله فما ثم نقصان ولا ثم باشع

المسند إليه فعلاً وإيجاداً واختراعاً وتجلياً .

والمبتدأ قسمان : ظاهر عند العارفين بظهور تجلياته ، فلا يرون معه غيراً ، كما قال الشاعر :

فلم يبق إلا الله لم يبق كائن فما ثَمَّ موصول وما ثَمَّ بائن
بذا جاء برهان العيان فما أرى بعيني إلا عينه إذ أعاين

ومضمر أي : خفي عند الغافلين يستدلون بالأشياء عليه ، وفي الحكم : شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه المستدل به عرف الحق لأهله وأثبت الأمر من وجود أصله . والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه .

والخبر الذي ظهر للعيان من عالم الغيب إلى عالم الشهادة قسمان أيضاً :

مفرد : وهو ما ليست له مادة محصورة كالملائكة والجن .

وغير مفرد : وهو ما له مادة محصورة ، وهو المركب من جسم ولحم ودم ، أو من جواهر حسية ، والكل منه وإليه . وبالله تعالى التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق .

باب العوامل الداخلة على المبتدأ والخبر

وهي ثلاثة أشياء : كان وأخواتها ، وإن واخواتها ، وظننت وأخواتها .

فأما كان وأخواتها فإنها : ترفع الاسم وتنصب الخبر ،

وهي : كان وأمسى وأصبح وأضحى وظل وبات وصار وليس ومازال وما انفك وما فتئ وما برح وما دام ، وما تصرف منها نحو : كان ويكون وكن وأصبح ويصبح وأصبح ، تقول : كان زيدٌ قائما وليس عمروٌ شاخصا وما أشبه ذلك .

وأما إن وأخواتها فإنها : تنصب الاسم وترفع الخبر ، وهي : إن وأن ولكن وكأن وليت ولعل ، تقول : إن زيدا قائمٌ وليت عمرا شاخصٌ وما أشبه ذلك . ومعنى إن وأن للتوكيد وكأن للتشبيه ، ولكن للاستدراك ، وليت للتمني ، ولعل للترجي والتوقع .

وأما ظننت وأخواتها فإنها : تنصب المبتدأ والخبر على أنهما مفعولان لها ، وهي : ظننت وحسبت وخلت وعلمت وزعمت ورأيت ووجدت واتخذت وجعلت وسمعت تقول : ظننت زيدا منطلقا ، وخلت عمرا شاخصا وما أشبه ذلك .

نواسخ الابتداء إشارة إلى نواسخ الأحكام الذاتية التي تتعلق بالذات القديمة التي هي مبتدأ الأشياء ومنتهاها .

والنسخ في أحكام الشريعة ، ومعناه : انتهاء الحكم إلى

وقت معلوم ثم يستأنف حكماً آخر على سابق الإرادة ، ويكون في : شرائع الأمم وفي الشريعة الواحدة ، ينسخ بعضها بعضاً كما هو مقرر في محله . ويكون في الأقضية البارزة إلى عالم الشهادة ، فيظهر الله تعالى للملائكة أموراً يعلقها على أسباب وشروط أنها لا توجد ، فإذا أراد الله تعالى أمراً أمر الملك الموكل بذلك الفعل بإبرازه ، ثم أظهر خلاف ذلك ليظهر اختصاصه تعالى بالعلم الحقيقي الذي لا يتبدل ولايتيغر ، وهو أم الكتاب ، فيقع النسخ بهذا المعنى في السعادة والشقاوة والأعمار وغيرها من القضايا التي تبرز من عند الحق تعالى . ولذلك كان سيدنا عمر وابن مسعود يقولان : اللهم إن كنت كتبتني من أهل الشقاوة فامحني واكتبني من أهل السعادة . وأما العلم الأصلي الذي هو الأم فلا يتبدل ولا يتغير .

ولا يصح النسخ في الأخبار لأنه يلزم عليه الكذب .

ويقع النسخ أيضاً في واردات القلوب الصافية ، فيتجلى في قلب الولي أمر فيخْبِرُ به ثم ينسخه الله تعالى ويظهر خلافه ، ولا يقدح ذلك في ولايته ولا رتبته .

وقد يشار هنا بالنسخ إلى تلوين الخمرة الأزلية بالفروع التكوينية : فكان تشير إلى كان الله ولا شيء معه حيث لا شكل ولا رسم ، وأمسى وأصبح وأضحى إلى تلوينها بمرور الفلك في الصباح والمساء والضحى ، ويشار بظل وبات إلى تلوينها بمرور الليل والنهار ، وبصار إلى تلوينها بالظهور والبطون ، وبليس إلى تنْزيهها كقوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾(الشورى/١١) ، وبما زال وأخواتها إلى أنه تعالى ما زال وما يزول وما يحول عما كان عليه ، فالتغير عليه تعالى محال ، وبدام إلى دوام ربوبيته أزلاً أو أبداً .

ومن شأن هذه الأفعال أن ترفع الاسم وتعظمه وتُجِلُّه ، وهو الذي كان مبتدأ الأشياء ، وأصل ظهورها ورفعها له دلالتها على تلوين الآثار وتنقلات الأطوار ، فتدل بذلك على عظمة الواحد القهار ، وتنصب الخبر الذي هو عبارة عن الأثر لجريان أحكام الواحد القهار .

وأما إن وأخواتها فتشير إلى أحوال الخلق البارزة من حضرة الحق ، وذلك ما يعتريها من تأكيد الأمور والعزم عليها لإدراك نتائجها دينية أو دنيوية ، إذ لا تدرك الأمور إلا بالعزم

والجِدِّ وسيأتي الكلام عليها في باب التوكيد ، وتشير أيضاً إلى ما يتركب بها من الرجاء والخوف والتمني والطمع الفارغ ، وقد نهى الله عنها فقال : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ الآية والمأمور به هو قوله تعالى ﴿ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ﴾(النساء)

وأما ظننت وأخواتها فتشير إلى أحوال القلوب ، فإن منها : ما يدخل فيه اليقين الكبير الناشئ عن الشهود والعيان ، وهو مقام عين اليقين ، وهذا مقام العارفين الراسخين في العلم بالله ، ولا سبيل له إلا بصحبته شيخ التربية والدخول تحت تربيته . ومنها : ما يدخلها الظن القوي الراجح وهي قلوب أهل البرهان والاستدلال ، فتارة يقوى عليهم الدليل فيستشرفون على عين اليقين ، وتارة تتكرر عليهم الخواطر الرديئة فلا يبقى لهم إلا الظن القوي ، ومنهم من تلعب بهم الشكوك والأوهام فيموتون على الشك والعياذ بالله .

ولقد نقل عن الرازي أنه كان يقول عند الموت : اللهم إيماناً كإيمان العجائز . وكتب إليه ابن العربي الحاتمي فقال : ائتني

أعرفك الله قبل أن تموت جاهلاً فتنكره فيمن أنكره حين يتجلى بخلقه . وقال بعضهم : إيمان أهل الكلام كالخيط المعلق في الهواء يميل مع كل ريح . والعياذ بالله من الفتن وسوء المحن .

وما رأيت أحداً حصل له اليقين الكبير الذي هو عين اليقين الناشئ عن الشهود والعيان في زماننا هذا إلا شيخ شيخنا قطب دائرة التربية النبوية مولاي : العربي الدرقاوي الحسني وشيخنا البوزيدي وخواص أصحابهما رضي الله عنهم ، وأما الباقي فكلهم في سجن الأكوان يستدلون بها على المكون ، فتارة يقوى يقينهم ويتنور دليلهم فيحصلون على علم اليقين ، وتارة يضعف يقينهم فيتكرر عليهم الخواطر الرديئة والوساوس الشيطانية فيحصلون على الظن القوي ، عالماً كان أو صالحاً أو عابداً أو زاهداً . وبالله تعالى التوفيق .



باب النعت

النعت تابع للمنعوت في رفعه ونصبه وخفضه وتعريفه وتنكيره نحو : جاء زيد العاقل ، ورأيت زيدا العاقل ، ومررت بزيد العاقل :

الوصف تابع للموصوف لا يفترقان أبداً . وبعبارة أخرى : الصفة لا تفارق الموصوف ، فمهما ظهرت الصفات ظهرت معها الذات ، ومهما تجلت الذات تجلت الصفات فانمحى حينئذ وجود الأثر بظهور المؤثر ، إذ الأثر لا يظهر إلا بقدرة ، وهي لا تفارق الذات فافهم وإلا فسَلِّم ، ومنهم من يعبر عن هذا بقولهم : الذات بين الصفات ، وإنما أراد بالعين التلازم في الظهور ، وإلا فالذات سر لطيف لا تدرك ، والصفات معنى قائم بها .

وإن شئت قلت : نعت الذات تابع لها في الكمالات وعدم النهايات ، فكما أن الذات لا نهاية لها ولا حصر فكذلك الصفات لا نهاية لها ولا حصر ، فأسرار الذات وكمالاتها خارجة عن معارك العقول ، وكذلك الصفات .

أو تقول : نعت الذات في مظاهر التجليات تبع للمنعوت في تلوناته ، فقد سئل الجنيد رضي الله عنه عن التوحيد فقال : لَونُ الماءِ لونُ إناءِهِ . يعني : أن أسرار المعاني حين تجلت في قوالب الأواني تلونت بتلون القوالب بين أبيض وأسود وأحمر وأصفر وأخضر إلى غير ذلك من ألوان الخمرة الأزلية في حال التجلي . وأما قبل التجلي فهو سر لطيف له قدرة على التجلي كيف شاء ، وإنما اختلفت ألوانه بعد التجلي ، قال الجيلي رضي الله عنه في عينيته :

وكل اسوداد فى تصافيف طرة
وكل احمرار فى العوارض ناصع
تجلى حبيبى فى مرءاي جماله
ففى كل مرأى للحبيب طلائع

ثم قال :

وأطلق عنان الحق فى كل ما ترى
فتلك تجليات من هو صانع

ويدخل في بعض التلونات قول المصنف :

النعت تابع للمنعوت في رفعه : إن تجلى فيه باسمه الباطن

فأنكره جلُّ الخلق وهو في مقام عند الملك الحق ، وقد أشار شيخ شيوخنا ومادة طريقنا رئيس البحرية وإمام أهل الحضرة الأزلية سيدي علي العمراني المكنى بالجمل رضي الله عنه إلى هذا المعنى في كتابه فقال ما نصه : انظر يا أخي وتأمل هذه الحضرة كيف كملت فيها الأوصاف وتوفرت فيها الشروط ! كيف كمل نقصانها كما كمل كمالها ! فسبحان من أظهرها بالكمال في النقص والكمال حتى صار الكل كمالاً ولا نقصان . وانظر يا أخي ما أقربها في بعدها وما أبعدها في قربها ! وما أرفعها في وضعها وما أوضعها في علوها ! وأكبرها في صغرها وما أصغرها في كبرها ! وما أقواها في ضعفها وما أضعفها في قوتها ! وما أغناها في فقرها وما أفقرها في غناها ! وما أعزها في ذلها وما أذلها في عزها ! . إلى آخر كلامه . فقد اجتمعت الضدان بل الأضداد في مظهر واحد ، وإلى ذلك أشار الجيلي أيضاً بقوله :

تجمعت الأضداد في واحد منها وفيه تلاشت فهو عنهن ساطع

ولا يفهم هذا إلا أهل الأذواق والوجدان ممن خاض في بحر الشهود والعيان ، وحسب من لم يبلغ هذا التسليم وبالله تعالى التوفيق .

تنبيه :

قول أهل الحقيقة : إن الضدين والأضداد تجتمع في محل واحد معناه : مع اختلاف الحيثية والجهة .

ثم إن الأضداد على قسمين : أضداد عقلية وأضداد عادية مثالها : النار والماء ، والحر والبرد ، والنهار والليل ، وغير ذلك مما لا يمكن اجتماعهما عقلا ويستحيل عادة .

أما الأضداد العقلية فلا تجتمع أبداً في محل واحد إلا مع اختلاف الحيثية كما تقدم ، فالربوبية والعبودية قد يجتمعان في محل واحد كالآدمي مثلا ، فالعبودية : من حيث الغالب الحسي ، والربوبية : من حيث المظهر المعنوي . العبودية مرتبة على الحس البشري ، والربوبية مرتبة على الأمر المعنوي . العبودية ظاهرة ، والربوبية كامنة .

وكذلك القدم والحدوث : القدم من جهة معناه ، والحدوث من جهة حسه العارض ظهوره .

وكذلك العز والذل والغنى والفقر ، فالعز والغنى محلهما الظواهر ، وقد تجتمع فيه في وقت واحد لكن مع

اختلاف الجهة كما قلنا . ومن يقول : إن الضدين والأضداد تجتمع في محل واحد مع اتحاد الجهة والوقت فجاهل ، لأن القدرة لا تتعلق بالمحال ، إذ لو تعلقت بالمحال للزم تعلقها بإعدام الذات العلية وإثبات الشريك لله تعالى ، وهو هوس عظيم لا يقول به عاقل .

وأما الضدان العاديان والأضداد العادية فيجوز اجتماعها في محل واحد ، إذ القدرة صالحة لذلك ، ولم تقع في عالم الحكمة إلا معجزة كنار إبراهيم عليه السلام ، وإنما وقع اجتماعها مفترقة المحل مع اتحاد الوجود عند أهل الباطن ، فالماء في محل والنار في محل ، وكذلك الحر والبرد ، والموت والحياة ، والجنة والنار ، ولو جمع الله ذلك في محل واحد لكان جائزاً .

وقول الجيلي رضي الله عنه تجمعت الأضداد : مراده الأضداد العقلية مع اختلاف الحيثية كما تقدم ، والأضداد العادية مع افتراق الجهة في عالم الحكمة ، أو مطلقاً في عالم القدرة ، والوجود كله متحد في ذات واحدة ومظهر واحد ، كما قال الشاعر :

هذا الوجود وإن تعدد ظاهراً وحياتكم ما فيه إلا أنتم

وقد اجتمعت فيه أضداد كثيرة عقلية وعادية لكن مع اختلاف الحيثية أو الجهة .

فتحصَّلَ أن الأحكام العقلية : الواجب والمستحيل والجائز لا تنخرم عند أهل الباطن ، وإنما بعض الممكنات عند أهل الظاهر ، وتصير واجبة عند أهل الباطن لجمعها بأصلها ومشهود الحق فيها . والجائز عند أهل الباطن هو تلوين الخمرة على سابق المشيئة . والله تعالى أعلم .

والمعرفة خمسة أشياء : الاسم المضمر نحو : أنا وأنت ، والاسم العلم نحو : زيد ومكة ، والاسم المبهم نحو : هذا وهذه وهؤلاء ، والاسم الذي فيه الألف واللام نحو : الرجل والغلام ، وما أضيف إلى واحد من هذه الأربعة .

والنكرة كل اسم شائع في جنسه لا يختص به واحد دون آخر ، وتقريبه : كل ما صلح دخول الألف واللام عليه نحو : الرجل والغلام :

المعرفة بالله تظهر في خمسة أشياء فمن عرف الله تعالى فيها فهو عارف ، ومن جهلها أو أثبتها مع الله فهو تالف ، أولها :

الكنايات نحو : أنا وأنت ، فما دمت تقول : أنا أفعل أو أنت فعلت فأنت جاهل مشرك ، وإن غبت عنك وعن غيرك فأنت موحد عارف . ثانيها :

أسماء الأشخاص والأماكن : فإن عرفت الله فيها فأنت عارف ، وإن أثبتها مع الله فأنت جاهل ، الأكوان ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته ، ما نصبت لك العوالم لتراها بل لتَرَى فيها مولاها . الثالث :

المبهمات من الكائنات : كهذا فعل كذا ، وهذه فعلت ، فما دام العبد ينسب التأثير للغير ويتوقع منه ضرراً أو نفعاً فهو جاهل بالله . الرابع :

المعرفة عند الناس بالرياسة والجاه : كالحكام والقواد وغيرهما من أهل الرياسة الظاهرة ، وكذلك أهل الرياسة الباطنة كالأولياء والصالحين ، فمن عرف الله تعالى فيهم ورأى أنهم متصرفون تحت قهرية الحق يتصرفون بقدرته وإرادته ، ليس بيد أحد منهم شيء ، بل ولا وجود لهم مع الحق فهو عارف ، وإن أثبت لهم ضرراً أو نفعاً ودخل قلبه منهم جزع أو خوف فهو جاهل بالله تعالى ، دعـاه أكبر من

قدمه . خامسها :

ما أضيف لواحد من هؤلاء : كأصحاب العشائر فهو بمنزلتهم ، لا حول لهم ولا تأثير ، كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان . نعم الإضافة لها تأثير في المضاف فمن انضاف إلى أهل العز بالحق تعزز ودام عزه ، ومن انضاف إلى أهل العز بالخلق أو بالمال مات عزه وأعقبه الذل ، ولله در القائل حيث قال :

عليك بأرباب الصدور فمن غدا
مضافاً لأرباب الصدور تصدرا
وإياك أن ترضى بصحبة ساقط
فتنحط قدراً من علاك وتحقرا

وأرباب الصدور هم : العارفون بالله ، الذين صدّرهم الله تعالى لنفع عباده ، والدعاء إليه على قدم رسول الله ﷺ ، والساقط هو الجاهل بالله وبأحكامه كائناً من كان . وكان الإمام مالك رضي الله تعالى عنه كثيراً ما ينشد هذا البيت :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدي

وبالله تعالى التوفيق .

باب العطف

وحروف العطف عشرة وهي : واو والفاء وثم وأو وأم وإما وبل ولا ولكن وحتى في بعض المواضع ، فإن عطفت بها على مرفوع رفعت ، أو على منصوب نصبت ، أو على مخفوض خفضت ، أوٍ على مجزوم جزمت ، تقول : قام زيدٌ وعمروٌ ، ورأيت زيدا وعمرا ، ومررت بزيد وعمرو ، وزيد لم يقم ولم يقعد :

علامة العطف من الله تعالى على عبده عشرة :

هدايته ، وتوفيقه ، وحفظه ، وتوليته ، وتقريبه من حضرته ، وكشف حجابه ، وانتقامه من أعدائه ، وقيامه بشؤونه بلا تعب ، وقذف محبته في قلوب عباده ، وانتهاض القلوب بهمته وحاله وكلامه .

وعلامة العطف من العبد على مولاه : امتثال أمره ، واجتناب نهيه ، والإكثار من ذكره ، والاستسلام لقهره ، ومحبة كلامه ، ومحبة رسوله ﷺ ، ومحبة أهل بيته ، ومحبة أوليائه ، وصحبتهم ، وخدمتهم ، والثقة بربه ، والتوكل عليه في جميع أموره ، وعدم التدبير والاختيار مع ربوبيته ، والرضا

والتسليم بجميع أحكامه الجلالية والجمالية ، وتحقيق معرفته ، ودوام شهوده والحضور معه في جل أوقاته . فهذه علامة محبة الجانبين .

وقال الشيخ من جهة الإشارة : وحروف العطف عشرة ، أي : أسبابها وهي :

واو الجمع أي : جمع القلب بالله والجمع مع أهل الله .

وفاء الترتيب : وهي ترتيب وظائف العبودية في الظاهر على ترتيب الشريعة ، فلولا الورد ما كان وارداً ، ولا يُنكر الورد إلا جهول .

وثم : التي تدل على المهلة وعدم العجلة ، فالتأني من الله والعجلة من الشيطان[1] ، ومن تأنى أصاب أو كاد ، ومن استعجل أخطأ أو كاد ، كما في الحديث[2] .

---

[1] قال في الجامع بعد سرده الحديث : رواه البيهقي في الشعب عن أنس ، وأشار إلى ضعفه .

[2] قل في كشف الخفاء : وللطبراني والعسكري والقضاعي من حديث ابن لهيعة عن عقبة بن عامر رفعه : « من تأنى أصاب أو كاد ، ومن عجل أخطأ أو كاد »

وكان الولي المكاشف المجذوب أحمد أبو سلهام كثيراً ما ينشدني هذا البيت حين أدخل عليه في حال الشباب :

تأن ولا تعجل لأمر تريده   وكن راحماً بالخلق تبلى براحم

وأو : التي تفيد التنجيز ، فإذا خيره سيده اختار العبودية على الحرية ، فبقدر ما يتحقق بالعبودية في الظاهر تتحقق له الحرية في الباطن . والعبودية هي السفليات دون العلويات والإباحة ، فيبيح ماله وعرضه لجميع الخلق ، كأبي خمار فالصوفي ماله مباح ودمه هدر .

وأم للتقسيم : فيقسم ما جعله الله على يديه من الأرزاق الجسية والمعنوية كالعلوم والأسرار على من يستحقها ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾(البقرة/٦٠) فيخاطب كل واحد على قدر فهمه وعقله .

أو الإبهام : فيبهم أمره ويكتم سره اكتفاء بعلم الله تعالى ، استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك في عبوديتك . والتشكيك في الولاية بعد التعرض لأسباب الظهور ، وفي ذلك يقول المجذوب رضي الله تعالى عنه :

أحضر لسرك ودك في الأرض سبعين عامه

وخل الخلائق تشك إلى يوم القيامه

وبل للإضراب : وهو إضرابه عن الدنيا وأهلها إلى مولاه ، فبقدر ما يغيب عن حس الظاهر تشرق عليه أنوار الباطن . قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه : غب عن حس ظاهرك إن أردت فسحة باطنك .

وإما التي يطلب بها التعيين : وهو تعيين الحق فيتبع ، من الباطل فيجتنب ، أو تعيين طريق السلوك فيسلكها على يد أهلها ، أو التسوية فيستوي عنده الذهب والتراب في عدم الرغبة ، والذل والعز ، والفقر والغنى والذم والمدح ، والمنع والعطاء ، وهكذا تستوي عنده الأحوال ، فيتحقق بمقام الاستواء الذي يتأهل به للولاية الكبرى ما جرى ويجري فيه .

وبل تشير إلى إضراب المريد عن الكون غيبة في المكوِّن فناء وشهوداً .

ولا تنفي السوى وتثبت المولى ، فتقول : الحق موجود لا غيره .

ولكن تشير إلى استدراك ما فات من العمر في البطالة والتقصير بالجد فيما بقي والاجتهاد والتشمير . قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : نِعْمَ بقية عمر المؤمن يدرك بها العبد ما فات ، ويحيي ما أمات .

وحتّى تشير إلى انتهاء السير بالوصول إلى غاية المعرفة والتمكين على دوام الشهود .

فإن عطفت بها على مرفوع في درجات القرب رفعت أي : زدت في رفعة .

أو على منصوب للتوجه والسير نصبت بهِ حتى وصلت .

أو على مخفوض للهوى والنفس بالمجاهدة والمكابدة خفضتَهما له أي أعنته عليهما .

أو على مجزوم للسير طالب للوصول جزمتّه وشددت عقده حتى يشاهد أسرار ذاته وأنوار صفاته . وبالله تعالى التوفيق .



باب التوكيد

التوكيد تابع للمؤكَّد في : رفعه ونصبه وخفضه وتعريفه وتنكيره ويكون بألفاظ معلومة وهي : النفس والعين وكل وأجمع وتوابع أجمع وهي : أكتع وأبتع وأبصع ، تقول : قام زيد نفسه ، ورأيت القوم كلهم ، ومررت بالقوم أجمعين :

التوكيد في الأمور والعزم عليها والجد في طلبها تابع للمؤكد المطلوب.، فإن كان أمراً رفيعاً عظيماً كمعرفة الله ورسوله بالعيان ، فالتوكيد والعزم يكون بليغاً عظيماً ، فالحضرة مهرها النفوس ، فبذل النفس والمهج قليل في حقها . فالله تعالى عزيز لا ينال إلا بدفع العزيز عندك وهو نفسك ، فبقدر إتعابها تكون راحتها ، وبقدر بيعها والغيبة عنها يعظم مقامها . فبقدر الكد والجد تدرك المعالي كما قال الشاعر :

بقدر الكد تكتسب المعالي ومن طلب العلى سهر الليالي
تريد العز ثم تنام ليلاً يغوص البحر من طلب اللآلي

وإن كان المؤكَّد أي المطلوب متوسطاً كعلم الرسوم

وحفظ القرآن فالتوكيد والعزم يكون متوسطاً ، فقد يدركه أهل الرياسة والجاه وأهل الأسباب والشواغل القلبية ، بخلاف المقام الأول ، فلا يدركه إلا أهل التجريد ظاهراً وباطناً .

وإن كان المؤَكَّد أمراً دنيوياً فالتوكيد والجزم فيه على قدر الهمة . هذا إشارة إلى قوله : تابع للمؤكد في **رفعه** في المقام الأول مع المقربين ، **ونصبه** أي توسطه في المقام الثاني مع الأبرار والصالحين ، **وخفضه** في المقام الثالث مع الغافلين .

ويتبعه أيضاً في **تعريفه** ، فبقدر كده واجتهاده يكون تعريفه وكشف الحجاب عنه ، وقد يتبعه في **تنكيره** : إن قلَّت مجاهدته وتفرغه ، فيتنكر الحق له على قدر شغله عنه ، ويكون التوكيد والجد في الطلب بالنفس أي ببيعها وبذلها للحتوف والمكاره أولاً ، وبالغيبة عنها ثانياً . ويكون **بالعين** أي : بالذات بإتعابها في مرضاة الله ، **وبالكل** أي : بالنفس والروح وكل ما تملكه تهبه لله ولمن يُعَرِّفك بالله . وبالله تعالى التوفيق .



باب البدل

إذا أبدل اسم من اسم أو فعل من فعل تبعه في جميع إعرابه ، وهو أربعة أقسام : بدل الشيء من الشيء ، وبدل البعض من الكل ، وبدل الاشتمال ، وبدل الغلط ، نحو قولك : قام زيد أخوك ، وأكلت الرغيف ثلثه ، ونفعني زيد علمه ، ورأيت زيداً الفرس ، أردت أن تقول : الفرس فغلطت فأبدلت زيداً منه :

إذا أبدل اسم من اسم في مقام الفناء في الذات فيترقى من اسم العبد إلى اسم الرب حين تستولي عليه أنوار الحقائق ، فيغيب العبد في وجود الرب ، وهو مقام الوصال والاتصال ، يغطي الحق وصف عبده بوصفه ، ونعته بنعته ، فيوصله بما منه إليه لا بما من العبد إليه ، فيغطي : وصف العبودية بوصف الربوبية ، ونعت الحدوث بنعت القدم ، فيفنى الحادث ويبقى القديم .

أو فعل من فعل في مقام الفناء في الأفعال ، فلا يرى فاعلاً قط إلا الله ، وفي هذا المقام قال الشاعر :

إذا ما رأيت الله في الكل فاعلاً   رأيت جميع الكائنات ملاحا

وهذا بداية السالكين ونهاية الصالحين ، ووسطه الفناء في الصفات للمستشرفين . قال القطب ابن مشيش رضي الله عنه : حقيقة الشراب أي خمر المحبة مزج الأوصاف بالأوصاف ، والأفعال بالأفعال ، والأسماء بالأسماء ، والأنوار بالأنوار . إلى آخر كلامه . والمقصود بالأنوار : الذات بالذات ومعناه الغيبة في الله عما سواه .

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه : رجال محوا أوصافهم بأوصافه ، وأفعالهم بأفعاله ، وذواتهم بذاته ، وحمَّلَهم من الأسرار ما تعجز عنه عامة الأولياء . انتهى .

فإذا أبدل اسمه باسمه ، وفعله بفعله تبعه في جميع تجلياته ، فإذا تجلى سبحانه باسمه القابض انقبض وينقبض الوجود بقبضه ، وإذا تجلى باسمه الباسط انبسط وينبسط الوجود ببسطه ، لأنه خليفة الله في أرضه ، فكل ما يتجلى به تعالى في قلب العارف الذي هو بدل من الله في ملكه وتصريفه يتجلى هو في الوجود بجلاله وجماله .

وهو على أربعة أنواع : إما أن يكون بدلاً من الحق ونائباً عنه في الكل ، وهو مقام الغوث الجامع ، لأن المدد كله منه للدائرة كلها حساً ومعنى .

وإما أن يكون بدلاً منه في البعض ، كمقام الأقطاب والأوتاد والأبدال والنجباء والنقباء والصالحين ، فإنهم يتصرفون في بعض المملكة على حسب ما ملَّكَهم الله التصرف فيه .

وإما أن يكون بدلاً منه لاشتماله على علوم وأنوار وأسرار لم توجد لغيره ، وهذا مقام الأفراد ، فإن الفرد أكبر من القطب الجامع في العلم بالله ، قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه : كان الجنيد قطباً في العلوم ، وكان البسطامي قطباً في الأحوال ، وكان سهل قطباً في المقامات . انتهى .

وقد يكون ذلك البدل دعوى وغلطاً ، فيترامى على مقامات الرجال بالدعوى والغلط وهو بعيد منها ، والعياذ بالله تعالى من الدعاوى العريضة من القلوب المريضة . وبالله تعالى التوفيق .

باب منصوبات الأسماء

المنصوبات خمسة عشر وهي : المفعول به ، والمصدر ، وظرف الزمان ، وظرف المكان ، والحال ، والتمييز ، والمستثنى ، واسم لا ، والمنادى ، والمفعول من أجله ، والمفعول معه ، وخبر كان وأخواتها ، واسم إن وأخواتها ، والتابع للمنصوب ، وهو أربعة أشياء : النعت ، والعطف ، والتوكيد ، والبدل :

المقامات المنصوبة للمريد إذا قطعها وصل خمسة عشر : التوبة ، ثم التنبه ، ثم الاستقامة وهي متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام في أقواله وأفعاله وأحواله ، ثم الخوف ، ثم الرجاء ، ثم الصبر والشكر أي : الصبر على البلية والشكر على النعمة من حيث إنها نعمة ، ثم الورع ، ثم الزهد ، ثم التوكل ، ثم الرضا ، ثم التسليم ، ثم الإخلاص والصدق وهو : التبري من حوله وقوته ، ثم الطمأنينة ، ثم المعرفة ، ثم المحبة ، ثم المشاهدة وهي : الرسوخ والتمكين من شهود الحق . وبالله تعالى التوفيق .

باب المفعول به

وهو الإسم المنصوب الذي يقع به الفعل ، نحو قولك : ضربت زيدا وركبت الفرس ، وهو قسمان : ظاهر ومضمر ، فالظاهر : ما تقدم ذكره ، والمضمر قسمان : متصل ومنفصل

فالمتصل اثنا عشر وهي : ضربني ، وضربنا ، وضربك وضربكما ، وضربكم ، وضربكن ، وضربه ، وضربها ، وضربهما ، وضربهم ، وضربهن .

والمنفصل اثنا عشر وهي : إياي ، وإيانا ، وإياك ، وأياك وإياكما ، وإياكم ، وإياكن ، وإياه ، وإياها ، وإياهما ، وإياهم وإياهن :

المفعول به هو الذي تحقق فناؤه وكمل بقاؤه بالله ، قد غاب عن وجوده ووجود فعله ، فهو مفعول به في كل ما يفعل ويذر ، ليس له عن نفسه إخبار ، ولا مع غير الله قرار . فعله بالله وتركه بالله ، فمثل هذا لم يبق عليه ميزان ولا يتوجه عليه عتاب ، إذ هو نائب عن الله في فعله ، وهو عين من عيون الله ، لأن وصفهم البشري مغطى عنهم ومغمور بنور القدم .

وإلى ذلك يشير ما ورد من قولهم : الشأن أن تكون عين الاسم أي : عين المسمى ، وقولهم : أصابتك عين من عيون الله ، ومن قول سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه للرجل الذي شجه ، أي : ألقاه ممدوداً بين خشبتين مغروزتين بالأرض يفعل ذلك بالمضروب والمصلوب .

قال سيدنا علي كرم الله وجهه ورضي الله تعالى عنه والدم يسيل من شجته : أصابتك عين من عيون الله ، بعد أن سأله عن سبب الضربة فقال : رأيته مفاوضاً لامرأة فساءني ما سمعت منه فضربته .

وورد عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه وأرضاه في قضية أخرى : إني لا أقيد من وزعة الله ، والوزعة كبراء الجيش الذين يمشون بين صفوف الحرب لتقويمها وتمهيدها .

وذلك إشارة منهم إلى رجال القبضة المتصرفين بالله الأمناء على أسرار الله في خليقته ومملكته ، وهم المحبوبون الذين ورد فيهم « فإذا أحببته كنت هو »

وقول المصنف رحمه الله : **وهو الاسم المنصوب** بجريان المقادير عليه لم يبق له تدبير ولا اختيار ، وهو الذي يقع به الفعل مع الله ، وهو آلة لفعله وسيف من سيوفه ينتقم به من أعدائه إذا شاء .

وهو على قسمين : ظاهر معروف أظهره الله لنفع عباده أو إقامة الحجة عليهم في الإنذار .

ومضمر خفي ، وهو كنز من كنوز الله ، مَنَّ به على خلقه وهو مستور تحت أستار البشرية حتى يلقى الله . وبالله تعالى التوفيق .

باب المصدر

وهوِ الاسم المنصوبِ الذي يجيء ثالثاً في تصريف الفعل ، نحو : ضَرَبَ يَضرب ضَرْبا ، وهو قسمان : لفظي ومعنوي ، فإن وافق لفظه لفَظ فعله فهو : لفظي ، نحو : قتلته قتلاً . وإن وافق معنى فعله دون لفظه فهو : معنوي ، نحو : جلست قعودا ، وقمت وقوفا ، وما أشبه ذلك :

المصدر ما صدر عن الحق من أنوار تجلياته وأسرار ذاته ، وهو المنصوب أي : ما نصب من الكائنات ليعرف بها ويشهد فيها ، فما نُصبَت الكائنات لتراها بل لتَرَى فيها مولاها . قال صاحب العينية :

فأوصافه والاسم والأثر الذي
هو الكون عين الذات والله جامع

وقال فيها أيضاً :

هو الموجد الأشياء وهو موحد
وعين ذوات الكل وهو الجوامع

وإنما يَجيء هذا ويَكشِف عن تصريف الفعل ثالثاً في فعل الشريعة والطريقة والحقيقة ، فتشتغل النفس أولاً بالشريعة حتى ترتاض بها وتذوق حلاوتها ، ويشتغل القلب ثانياً بأفعال الطريقة فيتخلى من الرذائل ويتحلى بالفضائل ، وتشتغل الروح ثالثاً بالفكرة في بحر الحقائق حتى تستمر معها ويرسخ قدمها في شهود أنوارها .

وهو أي ما صدر من الكائنات على قسمين :

قسم غلب معناه على حسه فصار معنوياً كالملائكة والعارفين من بني آدم .

وقسم غلب حسه على معناه كالجمادات ويلحق بهم من غلب حسه على معناه ، وشهوته على عقله من بني آدم ، وهم المنهمكون في الغفلة المنكبون على الدنيا بالكلية ، فانطمست بصيرتهم واتسعت دائرة حسهم ، فهم مسجونون بمحيطاتهم محصورون في هيكل ذاتهم ، عائذاً بالله من حالهم .

قال بعض العارفين : الخلق ثلاثة أقسام : قسم لهم عقل بلا شهوة وهم الملائكة ، وقسم لهم شهوة بلا عقل وهم البهائم وسائر الحيوانات ، وقسم لهم شهوة وعقل وهم بنو آدم .

فمن غلب عقله على شهوته كان كالملائكة أو أفضل ، ومن غلبت شهوته على عقله كان كالبهائم أو أضل ، وما شرف الله الآدمي وكرمه إلا بمجاهدة نفسه . فمن جاهد نفسه وزجرها حتى ملكها وظفر بها كان أشرف من الملائكة ، إذ لا مجاهدة لهم ، فلا تكمل مشاهدتهم كَمَالَ الآدمي . وبالله تعالى التوفيق .

باب ظرف الزمان وظرف المكان

ظرف الزمان هو اسم الزمان المنصوب بتقدير في، نحو: اليوم، والليلة، وغدوة، وبكرة، وسحراً، وغداً، وعتمة وصباحاً، ومساء، وأبداً، وأمداً وحيناً وما أشبه ذلك.

وظرف المكان هو اسم المكان المنصوب بتقدير في، نحو: أمام، وخلف، وقدام، ووراء، وفوق، وتحت، وعند، ومع، وإزاء، وحذاء، وتلقاء، وثَمَّ، وهنا، وما أشبه ذلك:

اعلم أن الوجود المتجلي به كله ظروف وأواني لأسرار المعاني. ولذلك قال التستري: لا تنظر إلى الأواني، وخض بحر المعاني، لعلك تراني.

والأواني عين المعاني، إذ لا تثنية في الوجود، ولذلك قال أيضاً: نطقي من خلف تلك الأواني، وإني دائم كل الأواني.

فالكون كله كثلجة ، والثلجة ظاهرها ثلجة جامدة وباطنها ماء مائع ، كذلك الكون ظاهره مكون كثيف ، وباطنه سر لطيف ، ظاهره كون وحقيقته مكوّن . وفي ذلك يقول الجيلي رضي الله تعالى عنه في عينيته :

وما الكون في التمثال إلا كثلجة   وأنت بها الماء الذي هو نابع
وما الثلج في تحقيقنا غير مائه   وغيرية حكم دعته الشرائع

وقال القطب ابن مشيش رضي الله عنه مخاطباً لوارثه أبي الحسن رضي الله عنه : يا أبا الحسن حلد بصر الإيمان تجد الله تعالى في كل شيء ، وعند كل شيء ، ومع كل شيء ، وقبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، وفوق كل شيء ، وتحت كل شيء ، وقريباً من كل شيء ، ومحيطاً بكل شيء .

والمراد بالقرب هو وصفه ، وبالإحاطة هي نعته ، وعُدْ عن الظرفية والحدود ، وعن الأماكن والجهات ، وعن الصحبة والقرب في المسافات ، وعن الدور بالمخلوقات ، وامْحَقِ الكل بوصفه الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو هو هو ، كان الله ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان . انتهى .

قوله : وعد عن الظرفية الخ أي : وجاوز عن الظرفية ، فلا تعتقد أن الحق مظروف لشيء أو محدود بشيء ، لأن الظرف عين المظروف ، والذات العلية عَمَّت كل شيء ، وأحاطت بكل شيء ، ومحت وجود كل شيء .

وفي الحكم : كيف يحتجب الحق بشيء والذي يحتجب به هو فيه ظاهر وموجود حاضر . انتهى .

وقوله : عن الدور بالمخلوقات : اعلم أن الاسرار اللطيفة الباقية على كنزيتها لا شك أنها محيطة بالأنوار التي وقع التجلي بها ودائرة بها ، لكن لما كانت هي عينها ومتدفقة منها صار الكل بحراً متصلاً ، رتقاً منطبقاً ، وصارت الدائرة عين المدار عليه . ولذلك قال : وامحق الكل بوصفه : الأول والآخر والظاهر والباطن ، إذ لا يخرج شيء من هذه الأسماء الأربعة ، فهو : أول كل شيء ، وآخر كل شيء ، والظاهر بكل شيء ، والباطن في كل شيء .

قوله : وهو هو هو : الأول يشير إلى الوجود الأول والأزلي قبل التجلي ، والثاني : إلى حاله بعد التجلي ،

والثالث : إلى حاله بعد طي هذا التجلي وإظهار تجل آخر يدوم وجوده وظهوره ، وهو المعبر عنه بالآخر .

وقال بعض العارفين في هذا المعنى : الحق تعالى منزه عن الأين والجهة والكيف والمادة والصورة ، ومع ذلك لا يخلو منه أين ولا مكان ولا كم ولا كيف ولا جسم ولا جوهر ولا عرض ، لأنه للطفه سارٍ في كل شيء ، ولنوريته ظاهر في كل شيء ، ولإطلاقه وإحاطته متكيف بكل كيف غير مقيد بذلك ومن لم يذق هذا ولم يشهده فهو أعمى البصيرة ، محروم عن مشاهدة الحق تعالى .

ولا يفهم هذه الأسرار ولا يذوقها إلا من صحب الرجال وقبّل التراب من تحت أقدامهم . ومن لم يقدر على هذه فليسلم للرجال فيما رمزوا له وأشاروا إليه .

وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

ولله در ابن الفارض رضي الله عنه حيث يقول :

ولاتك ممن طيشته دروسه بحيث استقلت عقله واستفزت
فثم وراء النقل علم يدق عن مدارك غايات العقول السليمة
تلقيته مني وعني أخذته ونفسي كانت من عطاء ممدتي

وإذا تنزلت إلى عالم الحكمة وهو عالم التشريع وجدت الظروف متفاوتة في الشرف والعلو على حسب مظروفاتها ، أشباحاً كانت أو أزمنة أو أمكنة ، فالأشباح تعظم بشرف الأرواح ، فإن كانت الروح عارفة بالله مكاشفة لأسرار الذات كان البدن الذي احتوى عليها عظيماً شريفاً ، يقتبس منه الأنوار والأسرار ، ويتبرك به حياً وميتاً ، ويزدحم الناس على قبره ويستشفى بترابه ، وإن كانت عالمة بأحكام الله كان لها شرف دون ذلك . وكذلك إن كانت عالمة حاملة لكتاب الله كان لها شرف ذلك . ثم عامة المؤمنين وإن كانت لا إيمان لها كان جسدها جيفة لا قدر له ولا قيمة .

وأما الأزمنة فتعظم أيضاً بقدر ما يقع فيها من الطاعة والإحسان كليلة القدر والليالي العشر ويوم عرفة وأيام العشر ويوم عاشوراء وليلة المولد ، لأنه ظهر فيه سيد الوجود ﷺ ، فالظرف تابع للمظروف في الشرف وضده .

ولذلك كانت أوقات العارفين كلها ليلة القدر لأنها كلها عندهم عظيمة ، لاشتمالها على العبادة الكبيرة وهي شهود الحبيب والقرب منه . وفي ذلك يقول الشاعر :

لولا شهود جمالكم في ذاتي
ما كنت أرضى ساعة بحياتى
ما ليلة القدر المعظم شأنها
إلا إذا عمرت بكم أوقاتى
إن المحب إذا تمكن في الهوى
والحب لم يحتج إلى ميقات

وقال آخر :

وكل الليالي ليلة القدر إن دنت
كما كل أيام اللقا يوم جمعة

وكان الشيخ المرسي رضي الله عنه يقول : نحن والحمد لله تعالى أوقاتنا كلها ليلة القدر ، لأن عبادتهم التي كانوا يعمرون بها أوقاتهم كلها فكرة واعتبار وشهود واستبصار وتفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة كما في الحديث[1] .

وكذلك الأمكنة تعظم بقدر ما يقع فيها من الطاعات

---

(1) ذكره في الجامع بلفظ : « فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة » وقال : رواه أبو الشيخ في العظمة عن أبي هريرة وأشار إلى ضعفه . وفي كشف الخفا : وورد عن ابم عباس وأبي الدرداء بلفظ : فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة .

كجبل عرفة والمساجد الثلاثة ثم المساجد الباقية والزوايا وخلوات الأولياء ونحو ذلك مما عظمته الشريعة .

وعند العارفين الأماكن كلها عرفة ، لأن الأماكن تتشرف بهم وتطيب بحضورهم ، وفي ذلك قال الشاعر :

وسعيي له حَجٌّ بهِ كلُّ وقفةٍ على بابِهِ قد عادَلَت ألفَ حَجّةٍ

أي وسيري إليه حج ، والوصول إليه والوقوف بباب حضرته وقفة تعدل ألف وقفة بعرفة ، وهذا كما قال الآخر :

كل وقت من حبيبي قدره كألف حجة

وينخرط في سلك هذا القول تفضيل آيات القرآن بعضها على بعض ، وذلك على حسب ما تدل عليه من تعظيم الربوبية وكشف حجابها ، وكذلك تفضيل الأذكار بهذا المعنى ، وتفضيل بعض الصلاة على النبي ﷺ على بعض بحسب ما تدل عليه من تعظيم الرسول وتمجيده ﷺ . وبالله تعالى التوفيق .



باب الحال

الحال هو الاسم المنصوب والمفسر لما انْبَهَم من الهيآت ، نحو قولك : جاء زيدٌ راكباً ، وركبت الفرس مسجراً ، ولقيت عبد الله راكباً ، وما أشبه ذلك . ولا يكون الحال إلا نكرة ، ولا يكون إلا بعد تمام الكلام ، ولا يكون صاحبها إلا معرفة :

الحال عند الصوفية وارد يرد على القلب من كشف أسرار الذات وأنوارها ، وتدهش الروح وتهيم وتسكر ، ويظهر ذلك على الجوارح فيهتز الرأس ويشطح البدن ، ويقال فيه : الوجد ، وربما وقع صاحبه في المهالك وهو لا يشعر ، وقد حكى أن الشبلي أخذه حال في موضع مقصبة فيه بقية من قطع قصب فقام عليها فدخلت في رجله فمات من ذلك . وقد مات كثير من الصوفية بالحال .

وقد أشار الشيخ أبو مدين رضي الله تعالى عنه إلى شيء من ذلك حيث قال :

فقل للذي ينهى عن الوجدِ أهلَهُ
إذا لم تَذُق معنى شرابِ الهوى دَعْنا
إذا اهتزتِ الأرواحُ شوقاً إلى اللقا
تراقصَتِ الأشباحُ يا جاهلَ المعنى
أمَا تنظرُ الطيرَ المُقَفَّصَ يا فتى
إذا ذكرَ الأوطانَ حَنَّ إلى المَغْنَى
يفرِّجُ بالتغريدِ ما بفؤادِهِ
فتطرَبُ أربابُ العقول إذا غنَّى
ويرقُصُ في الأقفاص شوقاً إلى اللِّقَا
فتضْطَربُ الأعضاءُ في الحِسِّ والمعْنَى
كذلكَ أرواحُ المحِبِّينَ يا فتى
تهُزُّزُها الأشواقُ للعالم الأسنَى
أَنُلْزِمُها بالصَّبْر وهي مشوَّقةٌ
وهلْ يستطيعُ الصَّبرَ من شاهد المَعْنَى
فيا حاديَ العُشَّاق قُمْ و احْدُ قائماً
وزمزمْ لنا باسم الحبيبِ وروِّحْنا
وصُنْ سِرَّنا في سُكْرنا عن حَسودِنا
وإنْ أَنْكَرَتْ عيناكَ شيئاً فسامِحْنا

فإنَّا إذا طِبْنا وطابَتْ قلوبُنا
وخامَرَنا خمرُ الغَرَام تَهتَّكْنا
فلا تَلُم السكرانَ في حال سكْرِهِ
فقدْ رُفِعَ التكليفُ في سكرنا عنَّا

وبعد الحال المقام ، وهو السكون والطمأنينة بالخروج من السكر إلى الصحو ، فتطمئن الروح وتسكن في مقام المشاهدة ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وفي هذا المقام قيل للجنيد : مالك ؟ كنت تتحرك عند السماع وترقص ، واليوم لم يظهر عليك شيء من ذلك ؟ فقرأ ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾(النمل٨٨)

ومنهم من يبقى في الحال بعد تمكنه في الشهود ، فيكون قطباً في الأحوال كما تقدم عن البسطامي ، إلا أن صاحب المقام يؤهل للاقتداء والاهتداء ، بخلاف صاحب الأحوال فلا يقتدى به في حال سكره ، وقلَّ من ينجح على يديه لصعوبة تربيته ، كحال أبي الشتاء الخمار فقد حكي أنه كان يعلق المريد رأسه أسفل ورجلاه فوق ويوقد النار تحته .

فأول السير علم ، ثم عمل ، ثم حال وهو الذوق ، ثم الشرب ، ثم السكر ، ثم المقام وهوالصحو .

ويقال : الأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب ، وكسبها هو تقدم الأحوال عليها كأنها نتائجها . وكون الأحوال مواهب يعني : بعد التحرك في جلبها ، كخرق العوائد وحضور حلق الذكر والسماع مع تفرغ الباطن من العلائق وقد تكون الأحوال ظلمانية أو نفسانية أو شيطانية ، فإن أهل اللهو قد ينجذبون فيقطعون الليل والنهار واقفين في لهوهم غائبين عنهم .

والأحوال الربانية هي التي تنشأ عن ذكر الله من القلوب المنوَّرة وعن سماع ما يحرك إلى الحضرة . وقد تنشأ عن سماع اللهو إذا كان عارفاً يصْرِفُه من الباطل إلى الحق ، كما وقع للرجل الذي سمع القائل يقول :

إذا العشرون من شعبان ولت فواصل شرب ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقداح صغار فقد ضاق الزمان على الصغار

فهام على وجهه وذهب إلى مكة فبقي بها مجاوراً حتى مات رضي الله عنه ، فهم أن العمر إذا ذهب جله فقد قرب

الأجل وضاق الزمان على العبادة الصغرى ، فيطلب الموضع الذي تكون فيه العبادة الكبرى فيضاعف فيه الأعمال . وهذا الرجل كان من العلماء المجتهدين ، ولو كان من العارفين لما احتاج إلى ذهاب مكة ، بل عبادة القلوب مضاعفة بأضعاف كثيرة في أي موضع كانت . ولذلك قال بعضهم : الذرّة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح . وقال عليه الصلاة والسلام « ركعة من عالم بالله أفضل من ألف ركعة من جاهل بالله » . ذكره في الجامع[1]

ولنرجع إلى ما كنا بصدده من الإشارة فنقول : الحال هو الاسم ، أي : الوصف الفضلة لأنه موهبة ومحض فضل ، المنتصب للمريدين السائرين ، يرقيهم من حال إلى حال ، ومن مقام إلى مقام ، وأول الأحوال وارد الانتباه ، فينتبه من نوم البطالة والتقصير إلى حال الجد والتشمير ، ثم وارد اليقظة فينتبه من نوم الغفلة إلى حال الذكر الدائم ، ثم وارد السير فيتجرد من العلائق لتشرق عليه أنوار الحقائق ، ثم وارد الوصال فيخرج من سجن الأكوان إلى شهود المكون ،

---

[1] وقال : رواه الشيرازي في الألقاب عن علي ، وأشار إلى ضعفه .

وقد أشار في الحكم إلى بعض هذا فقال : أورد عليك الموارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك ، المفسر لما انبهم من هيآت الرجال في سرائرهم ، فما كمن في السرائر ظهر في شهادة الظواهر ، وتنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال ، فمن كانت أحواله صافية موافقة للشريعة المحمدية علمنا أن باطنه صافٍ لا تخليط فيه ، ومن كانت أحواله ظلمانية مخالفة للشريعة المحمدية علمنا أن باطنه ظلماني لا صفاء فيه ، فصفاء الظاهر من صفاء الباطن ، وتخليط الظاهر من تخليط الباطن . ما تنضح الأواني إلا بما سكن فيها ، والأحوال الصافية تظهر نتائجها على صاحبها ، فالوارد الرباني يثمر أحوالاً سنية ، فيعقبه الزهد والورع والخشية والهيبة والرزانة والطمأنينة والسكينة والوقار والتواضع والسخاء والكرم ، وغير ذلك من الأحوال الحسنة والشيم الزكية .

والوارد النفساني والشيطاني تعقبه القساوة والفظاظة والتكبر والصولة على الناس والرغبة في الدنيا والجاه وغير ذلك من الأخلاق الذميمة ، وفي الحكم : لا تُزَكين وارداً لا

تعلم ثمرته فليس المراد من السحابة الأمطار وإنما المراد منها وجود الإثمار ، وفي الخلاصة : إن من أوصاف الحال النحوية الانتقال والاشتقاق فقال :

وكونه منتقلاً مشتقاً يغلب لكن ليس مستحقاً

وقالت الصوفية : إنما سمى الحال حالاً لتحوله وانتقاله ، فالحال لا يدوم لصاحبه ، وإنما هو ممطر على القلوب غيث المعارف وعلم الغيوب والأسرار والكشوفات والأنوار ، فإذا أودع ما فيه أقام ، فلا يطمع في دوامه بل استغني بالله عن كل شيء ، فليس يغنيك عنه شيء . وفي الحكم : لا تطلبن بقاء الواردات بعد أن بسطت أنوارها وأودعت أسرارها ، فلك في الله غنى عن كل شيء ، وليس يغنيك عنه شيء ، فكن عبد الله بلا علة ، ولا تكن عبد الحال الفاني لا يغنى . ومعنى اشتقاقه عندهم : طلبه واستجلابه لسبب يحركه كما تقدم . وبالله تعالى التوفيق .



التميز

التميز هو الاسم المنصوب المفسر لما انبهم من الذوات نحو قولك : تصبب زيد عرقاً ، وتفقأ بكر شحماً ، وطاب محمد نفساً ، واشتريت عشرين غلاماً ، وملكت تسعين نعجة وزيد أكرم منك أباً وأجملُ منك وجهاً .

ولا يكون التميز إلا نكرة ولا يكون إلا بعد تمام الكلام :

لا يكون العارف عارفاً حتى يحصل له التمييز بين الضدين اللذين وقع بهما التجلي ، فيميز بين الربوبية والعبودية في مظهر واحد ، وبين الروحانية والبشرية ، وبين الحس والمعنى ، وبين القدرة والحكمة ، وبين الأمر والخلق ، وبين الشريعة والحقيقة ، وبين الفناء والبقاء ، وبين السكر والصحو . وهكذا سائر الأضداد الموجودة في الكون الذي وقع به التجلي بين الربوبية والعبودية .

فالربوبية محلها البواطن ، والعبودية محلها الظواهر ، فهذا من عجائب أسرار الربوبية إن ظهرت في قوالب العبودية .

ولذلك تَعَجَّب صاحب الحكم العطائية حيث قال : سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور البشرية ، وظهر بعظمة الربوبية في اظهار العبودية .

وقال الحلاج[1] رضي الله عنه : سبحان من أظهرَ ناسوتُهُ سرًّ سنى لاهوتِهِ الثاقبِ ، ثم بَدَا في خلقه ظاهراً في صورة الآكل والشارب حتى لقد عاينه خلقُه كلحظةِ الحاجبِ بالحاجب . ولعدم فهم كلامه قتله أهل الظاهر ، ووافقهم أهل الباطن لإفشائه السر وهو قاله حقاً .

وأما البشرية : فالروحانية قائمة بالبشرية قيام الماء بالعود الرطب منسوبة إلى الروح ، فالبشرية محل التكليف ، والروحانية محل التعريف . البشرية محل العبودية ، والروحانية محل شهود الربوبية . فإذا استولت الروحانية على البشرية وكستها اكتساء النار للجمر صار صاحبها

---

[1] هو الحسين بن منصور الحلاج الفارسي البضامي البغدادي ، صوفي متكلم قتل ببغداد لست بقين من ذي القعدة سنة ٣٠٩/ هـ ، من تصانيفه : كتاب الطواسين ، حمل النور والحياة والأرواح ، وغيرها ،

روحانياً سماوياً ، وعلامته أنه لا تجول روحه دائماً إلا في أنوار التوحيد وأسرار التفريد . وإذا استولت البشرية على الروحانية صار صاحبها بشرياً أرضياً ، وعلامته جولان روحه غالباً في حس الكائنات ، وكلامه دائماً في الفروقات .

وأما الحس والمعنى : فالحس ما ظهر للبصر من حس الأواني ، والمعنى ما انكشف للبصيرة من أسرار المعاني ، فمن وقف مع حس الأواني كان محجوباً عن الله ، ومن نفذ إلى شهود المعاني كان عارفاً بالله . وفي ذلك قال التستري رضي الله عنه : لا تنظر إلى الأواني وخض بحر المعاني لعلك تراني . وقال أيضاً رضي الله عنه : إن نطقي من خلف تلك الأواني ، وأنا دائمٌ كلَّ الآوَانِ .

وكمون المعاني في الأواني ككمون الماء في الثلجة ، فالمعاني قديمة وظهور الأواني حادث ، فإذا وردت المعاني على الحسيات صار الكل قديماً . ولذلك قال الجنيد رضي الله عنه للذي قال : الحمد لله - لم يزِدْ : رب العالمين - فقال له الجنيد : أكملْها ، فقال له : أيُّ قدرٍ للعالمين حتى نذكر معه ؟

فقال له : كملها يا أخي ، فإن الحادث إذا قورن بالقديم تلاشى الحادث وبقي القديم .

وأما **القدرة والحكمة** : فإن القدرة من شأنها الإبراز والأظهار ، والحكمة من شأنها التغطية والاستتار ، لأن الحكمة هي اقتران الأسباب والعلل بمسمياتها ، فإذا أبرزت القدرة ما سبق به القدر جُعِلَت الحكمة أسباباً وعللاً ليبقى السر مصوناً والكنز مدفوناً .

فالحكمة هي التي تسميها العلماء الكسب والاكتساب عند أهل السنة . فالجبرية وقفوا مع القدرة ولم ينظروا إلى الحكمة وهو جهل وجحود . والمعتزلة وقفوا مع الحكمة ولم ينفذوا إلى شهود القدرة وهو شرك أو كفر . وأهل السنة نظروا إلى تصرف القدرة مرتدية برداء الحكمة وهي عين الكمال ، إلا أن الحكمة عند الصوفية أعم من الكسب عند أهل الظاهر . ولا يفرّق بين القدرة والحكمة إلا أهل الشهود والعيان .

وأما **الخلق والأمر** : فالخلق عبارة عن خلق الأشياء بالتدريج حسبما اقتضته الحكمة ، إلا أن الأمر لا ينفك عن

الخلق إلا في المعجزة للنبي أو الكرامة للولي ، كما لا تنفك القدرة عن الحكمة ، لأن عالم الخلق من جملة الحكمة التي وقع بها الاستتار لسر القدرة .

وأما الشريعة والحقيقة : فالشريعة أدب الظاهر ، والحقيقة أدب الباطن ، الشريعة تغطية للحقيقة كالحكمة للقدرة ، بل هي من جملة الحكمة .

وأما الفناء : فهو الغيبة عن حس الكائنات بشهود المعاني ، والبقاء : شهودهما معاً ، فيُعطَى كلٌّ ذي حق حقه ، ويُوفى كلٌّ ذي قسط قسطه . والسكر : هو الفناء والله تعالى أعلم .

فالتمييز هو المفسر لما انبهم من الذوات مع المعاني فيميز بينهما ويقوم بحق كل واحد منهما . وبالله تعالى التوفيق .



باب الاستثناء

وحروف الاستثناء ثمانية وهي : إلا ، وغير ، وسوَى ، وسُوَى ، وسواء ، وخلا ، وعدا ، وحاشا . فالمستثنى بإلا ينصب إذا كان الكلام تاماً موجباً نحو : قام القوم إلا زيداً ، وخرج الناس إلا عمراً . وإن كان الكلام منفياً تاماً جاز فيه البدل والنصب على الاستثناء نحو : ما قام إلا زيدٌ وإلا زيداً وإن كان الكلام ناقصاً كان على حسب العوامل نحو : ما قام إلا زيدٌ ، وما ضربت إلا زيداً ، وما مررت إلا بزيدٍ ، والمستثنى بغير وسِوَى وسُوى وسَواء مجرور لا غير ، والمستثنى بخلا وعدا وحاشا يجوز نصبه وجره نحو : قام القومُ خلا زيداً وزيدٍ ، وعدا عمراً و عمروٍ ، وحاشا بكراً وبكرٍ :

المستثنى من الفزع الأكبر هو من حصّل الإيمان والطاعة أو مقام الإحسان والمعرفة ، وأسباب النجاة منه ثمانية :

التقوى ظاهراً وباطناً ، واتباع السنة قولاً وفعلاً ، والصبر على الطاعة وعن المعصية وفي النقمة والبلية ، والرضا عن الله تعالى في الجلال والجمال ، والتوكل عليه في المنع والعطاء ، والدرء عن المحرم والمكروه ، والزهد في الفضول من كل شيء ، ومراقبة الله في السر والعلانية .

فمن حصل هذه الأمور كان من الذين قال الله فيهم : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾(الأنبياء) وممن استثنى الله بقوله ﴿ إِلا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ ﴾(النمل/٨٧) ومن غلبه القدر فالتوبة معروضة . وبالله التوفيق .

باب لا

اعلم أنَّ « لا » تنصب النكرات بغير تنوين إذا باشرت النكرة ولم تتكرر لا ، نحو : لا رجل في الدار ولا امرأة . فإن لم تباشرها وجب الرفع ووجب تكرار لا ، نحو : لا في الدار رجل ولا امرأة ، فإن تكررت جاز إعمالها وإلغاؤها ، فإن

شئت قلت : لا رجل في الدار ولا امرأة ، وإن شئت قلت : لا رجل في الدار ولا امرأة :

نفي الجنس والبعد عن الحس شرط في دخول حضرة القدس ومحل الأنس : فرِّغْ قلبك من الأغيار تملأه بالمعارف والأسرار ، كيف يُشرِق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته ؟ كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته ؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ؟

ولهذا شرعت كلمة التوحيد وهي : لا إله إلا الله ، وهي تنفي الشرك الجلي والخفي وتطهر القلب من الشواغل والعلائق . فالعامة تنفي الشرك الجلي ، والخاصة تنفي الخفي فالنفي مسلط على عامة من عُبِد من دون الله من صنم أو كوكب أو نار ، أو غير ذلك مما اعتقدت العرب وأهل الضلالة أنه يستحق أن يعبد مع الله .

فمعنى لا إله إلا الله : لا مستحق للعبادة إلا الله ، فهي تنفي استحقاق العبادة عن غير الله ، وتثبتها لله جل وعلا ، يقول : وأما نفيها للشرك الخفي : فإن من أحب شيئاً فهو

عبد له ، ومن ركن إلى شيء فقد تألهه . وكذلك من خاف من شيء فهو عبده ، فإذا قال المؤمن : لا إله إلا الله فقد أخرج من قلبه كلَّ شيء مال قلبه إليه ، أو خاف منه ، أو طمع فيه .

فمعنى لا إله إلا الله : لا حبيب ولا معبود بحق إلا الله ، أو لا ركون إلى شيء ولا خوف لي من شيء إلا الله ، فكل واحد ينفي ما في قلبه من الأغيار .

فأولها تخلية وآخرها تحلية ، ولذلك كان بعضهم إذا قال : لا إله أشار برأسه إلى ناحية قفاه كمن رمى شيئاً ، وإذا قال : إلا الله أشار برأسه إلى قلبه ليتمكن الله من قلبه ، هكذا يستمر حتى لا يجد ما ينفي ، فيرى أن الله تعالى يوحد نفسه بنفسه ، ويخبر بأنه : لا إله سواه ، فحينئذ يقول : الله الله . ثم : هو هو ، ثم يغرق في بحر الأحدية فيصمت اللسان ويثبت الشهود والعيان ، وما ذلك على الله بعزيز .



باب المنادى

المنادى خمسة أنواع : المفرد العلم ، والنكرة المقصودة ، والنكرة غير المقصودة ، والمضاف ، والمشبه بالمضاف .

فأما المفرد العلم والنكرة المقصودة فيبنيان على الضم من غير تنوين نحو : يا زيد ، ويا رجل . والثلاثة الباقية منصوبة لا غير :

المنادى في الأزمات والمآرب أي الشدائد والمقاصد خمسة : المفرد العلم : وهوالحق جل جلاله ، وهذا هو المقصود بالذات والأربعة وسائل . وقد يطلق المفرد العلم على الرسول عليه الصلاة والسلام لانفراده بالكمالات وظهوره بالمعجزات ظهور نار القرى ليلاً على علم . وإليه أشار صاحب البردة حيث قال :

خفضت كل مقام بالإضافة إذ

نوديت بالرفع مثل المفرد العلم

ولا شك أنه عليه الصلاة والسلام بـاب الله الأعــظم

وشفيعه الأكرم ، به تفرج الكروب وتقضى المآرب ، ولله در سيدي البكري الصديقي حيث قال :

فَلُذْ بهِ في كلٍّ ما ترتجي — فهو الشفيع دائماً يقبل
وعُذْ به من كلِّ ما تختشي — فإنه المرجع والموئل

والنكرة المقصودة وهي سر الولاية ، فمن ظفر بها كان باباً من أبواب الله يُفزَع إليه في الشدائد وتُقضى بشفاعته الحوائج ، لأنه نائب عن الرسول الذي هو الحجاب الأعظم . وإنما فسرنا النكرة المقصودة هنا بسر الخصوصية لتُنْكَر أولاً وتُقصَد ثانياً بعد التمكن منها ، فيظهر صاحبها بعد الخفاء لينتفع به العباد وتحيا به البلاد .

والنكرة غير المقصودة هي الخصوصية التي بقيت على حال الخفاء حتى مات صاحبها ، فهو كنز من كنوز الخفاء وعروس الحضرة لا يعرفه إلا أمثاله ومن قَرُبَ منه .

والمضاف : إلى أولياء الله بالتربية والخدمة ، وهو الملحق بهم في المآل .

والمشبه بالمضاف : وهو من تزيا بزيهم وانتسب إليهم ولم يكن له همة للظفر بسرهم ، فلا شك أنه تلحقه بركاتهم وتنسحب عليه أنوارهم ، كما قال القائل :

لي سادة من حبهم أقدامهم فوق الجباه
إن لم أكن منهم فلي في حبهم عز وجاه

فأما المفرد العلم : ويراد به الرسول عليه الصلاة والسلام والنكرة المقصودة من بني إبراهيم فيبنيان على الضم على الله ، والجمع بالله من غير تنوين أي : من غير شهود الأثر بسبب غيبتهم في شهود المؤثر فلا يفترقون عنه ساعة ، والثلاثة الباقية منصوبة للمقادير يجري عليهم ما كتب لهم مع السكون تحت مجاريه : إن قربهم فبفضله ، وإن فَرَّ منهم فبعدله ، والستر من أجله يحلو . وبالله تعالى التوفيق .

باب المفعول من أجله

وهو الاسم المنصوب الذي يذكر بياناً لسبب وقوع الفعل نحو : قام زيد إجلالاً لعمرو ، وقصدتك ابتغاء معروفك :

المفعول من أجله هو المسمى عند الصوفية بعالم الحكمة هو عالم الأسباب والعلل ، بخلاف عالم القدرة فإنه عالم الإبراز والإظهار . فعالم القدرة هو عالم الأمر وعالم الحكمة هو عالم الخلق والأمر . فالقدرة تبرز والحكمة تستر . فلا تبرز القدرة شيئاً الا مرتدياً برداء الحكمة إلا في المعجزة للرسول أو الكرامة للولي ، فإن القدرة تبرز بلا تغطية تصديقاً لذلك النبي أو الولي .

فعالم الدنيا القدرة فيه باطنة والحكمة فيه ظاهرة ، لأنه عالم التكليف ، ليظهر فيه مزية الإيمان بالغيب ، بخلاف عالم الآخرة فإن القدرة تكون فيه ظاهرة والحكمة باطنة ، لأنه عالم التعريف قد انقطع فيه التكليف ، وها أنا أذكر لك أمثلة تفهم منها القدرة والحكمة فمثل ذلك :

الأرزاق الحسية والمعنوية ، فإنها بارزة من عين المنة بمحض القدرة لكنها مغطاة بالحكمة وهي الأسباب والعلل ، ليبقى سر القدرة مصوناً .

وقد تظهر القدرة فيه بلا حكمة فيأتي من غير سبب كرامة لأهل التوجه ، وتعريفاً لهم ليقبلوا عليه ، وكل من تحقق

تقواه ظهر رزقه لا بسبب لقوله تعالى ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (الطلاق)

ومثال القدرة أيضاً مع الحكمة جرى السفن على الماء ، وهي بمحض القدرة لكن لا بد فيه من أسباب وإصلاح ، إذا اختلّت وقع الغرق . كذلك الغرس والزرع وكل ما يستنبت فلا بد من سقيه وصونه ليجتنى ثمره مع أن الله قادر على خلق الثمار فيها من غير علاج ، لكن لا بد من وجود الأسباب في هذا العالم الدنيوي ليبقى السر مصوناً ، ومنها تذكير الأشجار وقد أراد عليه الصلاة والسلام أن يظهر القدرة بلا حكمة في شأن التذكير فسقطت الثمار فقال : أنتم أعلم بدنياكم التي هي محل الأسباب والعلل ، وكذلك القضاء والقدر لا يبرز إلا مع الحكمة ، فإذا قدر الحق تعالى على عبده مصيبة من مرض أو حبس أو غيره أو شقاء أو فرج في وقت معلوم فإذا وصل إلى ذلك الوقت حركه تعالى لسبب ذلك فينزل به ما قدر له مستتراً بتلك الحكمة ، فالجاهل يقف مع الحكمة والعارف ينفذ إلى شهود القدرة ، وقس على هذا .

فالمفعول لأجله هو الباعث على الاسم المنصوب لتغطية القدرة الذي يذكر بياناً لسبب وقوع الفعل السابق في الأزل .

ومنه الإجلال والتعظيم الذي هو سبب الفتح الكبير ، والمطلب والابتغاء الذي هو سبب الوصول إلى معرفة الحق وبالله التوفيق .

باب المفعول معه

هو الاسم المنصوب الذي يذكر لبيان من فُعِل معه الفعل نحو قولك جاء الأمير والجيش ، واستوى الماء والخَشبة :

المفعول معه هو الذي تفعل الأشياء كلها معه وبحضوره ، وهو الله القائم على كل نَفْس بما كسبت ، الرقيب مع كل شيء ، والحاضر مع كل شيء ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ (الحديد/٤) وقال ﷺ : « أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل والمال والولد[1] »

---

[1] رواه أبو داود (٢٥٩٨) وأحمد (٢٥٦/١) والحاكم (٩٩/٢) وغيرهم .

فالمعية عند أهل الفرق العلم والإحاطة . وعند أهل الجمع الذات والصفات ، لأن الصفة لا تفارق الموصوف ، فالعلم لا يفارق العالِم قال الله تعالى ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ﴾(الطلاق/٧)

وقال العارف الورتجيشي رضي الله عنه : المعية بالعلم عموم ، وبالقرب خصوص . والقرب بالعلم عموم ، وبظهور التجلي خصوص ، وذلك دنوّ ﴿ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ ﴾(النجم) فإذا ارتفع الأين والبين والمكان والجهات واتصلت الأنوار كوشف الذات بالصفات وبالمعارف .

فذلك حقيقة المعية ، إذ هو سبحانه منزه عن الانفصال والاتصال بالحادث ، ولو ترى أهل النجوى الذين مجالستهم لله وفي الله لترى في وجوههم أنوار المعية . أين أنت من العلم الظاهر الذي يدل علىالرسوم ؟ ألم تعلم أن علمه تعالى أزلي ؟ وبالعلم تتجلى المعلومات ، فالصفات شاملة

على الأفعال ظاهرة من مشاهدة المعلومات . فإذا كانت الذوات لا تخلو من قرب الصفات كيف تخلو من قرب الذات ؟ الأرواح العالية هي المقدسة العاشقة المستغرقة في بحر وجوده المقصود منه .

وحاصل كلامه : أن المعية بالعلم تستلزم المعية بالذات ، لأن الصفة لا تفارق الموصوف ، وهذا السر لا يفهمه إلا أهل الفناء في الذات بصحبة مشايخ التربية ، وإلا فشأن من لم يبلغ أذواقهم التسليم .

وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

وبالله التوفيق .

وأما خبر كان وأخواتها واسم إن وأخواتها فقد تقدم ذكرهما في المرفوعات وكذلك التوابع فقد تقدمت هناك .

باب مخفوضات الأسماء

المخفوضات ثلاثة : مخفوض بالحرف ، ومخفوض بالإضافة وتابع للمخفوض :

المخفوضات عن مراتب الرجال ثلاثة :

مخفوض بسبب الحرف : وهو من يعبد الله على حرف أو طمع في غرض دنيوي أو أخروي ، وهو العبد السوء : إن أعطى عمل وإلا لم يعمل . فإن أصابه خير وهو : الغرض الذي طمع فيه اطمأن به وسكن . وإن أصابته فتنة وهو : فقدان ذلك الغرض انقلب على وجهه ورجع عن عبودية سيده ، خسر الدنيا والآخرة .

أما الدنيا فلفقدان حظه منها ، وأما الآخرة فلعدم التزود لها ، ذلك هو الخسران المبين .

ومخفوض بالإضافة إلى الأراذل وصحبتهم ، وتقدم قول الشاعر :

وإياك أن ترضى بصحبة ساقط

فتنحط قدراً من علاك وتحقرا

وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول : لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم . قيل : ومن الموتى يا روح الله ؟ قال : الراغبون في الدنيا المحبون لها . أو كما قال عليه الصلاة

والسلام . وفي حديث نبينا ﷺ « المرء على دين خليله » وقل « من أحب قوماً حشر معهم والمرء مع من أحب »

فلا تعرف مراتب الرجال إلا بأصحابها أي مشايخها ، ومخفوض بالتبعية لنفسه وهواه ، ومن تبع هواه أهوى به إلى الهوان ، كما قال الشاعر :

لا تتبع النفس في هواها إن اتباع الهوى هوان

ولابن يزيد رحمه الله تعالى :

فإن طالبتك النفس يوماً بشهوة وكان إليها للخلاف طريق
فدعها وخالف ما هوته فإنما هواك عدو والخلاف صديق

والعز كله في مخالفة الهوى والذل كله في اتباعه .

ويكفيك قوله تعالى ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾(الجاثية/٢٤) الآية .

فأما المخفوض بالحرف فهو ما يخفض بمن وإلى وعن وعلى وفي ورُبَّ والباء والكاف واللام وحروف القسم وهي : الواو والباء والتاء وبواو رب وبمُذ ومنذ .

وأما ما يخفض بالإضافة فنحو قولك : غلام زيد هو على قسمين : ما يقدر باللام وما يقدر بمن ، فالذي يقدر باللام نحو غلام زيد ، والذي يقدر بمن نحو : ثوب خزٍ ، وباب ساجٍ ، وخاتم حديد وما أشبه ذلك :

تقدم الكلام على هذا أول الكتاب ، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب . وصلى الله على سيدنا محمد سيد العرب والعجم ، خير من أم وأمم وأم البحر الفياض الذي انتشرت من علومه الشريعة والحقيقة انتشار الزهر بالرياض وعلى آله المنتمين وصحابته المقتدى بهم في سنة سيد المرسلين وأتباعهم وتابعيهم إلى يوم الدين .

وقد تم ما به أفيض على الفؤاد وكمل هذا المرام بإعانة رب العباد .

نحمدك اللهم على ما أودعت في صحائف الوجود من بديع الحكم ، ونشكرك على ما أفضت على كل موجود من جليل صنوف النعم ، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد صفوتك الأعظم ، الهادي بك إليك ورسولك الأكرم الدال بفضلك عليك ، وعلى آله ينابيع الأسرار وأصحابه الأئمة الأطهار .

الفهارس

مُنْيَةُ الفَقِيرِ المتجَرِّدِ وسِيْرَةُ المرِيدِ المتَفَرِّدِ

دار الحياة
حلب . سورية